ملتقى الإمام القرضاوي



ملتقى الإمام القرضاوي

مع الأصحاب و التلاميذ

القرضاوي المفكر والداعية والفقيه

د. طـه جابر العلواني

الدوحة - قطر -فندق الريدزكالرتون

٢٩/٦-٢/٧/١٤٢٨هـ ـ ١٤-١٦/٧/٢٠٠٧م

مقدّمة :

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين. نستغفره ونستعينه ونستهديه, ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. ونصلّي ونسلّم على سيدنا وإمامنا وهادينا إلى الخير محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعه واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

فنُّ السِّير :

ثم أمّا بعد : فإنَّني لست ممّن يتقنون كتابة السير والتراجم. وكل ما أذكره لنفسي من أعمال – في هذا المجال – أنّني حين اخترت كتاب "المحصول في علم أصول الفقه" للإمام الرازيّ رسالة للدكتوراة كان لا بد لي من إعداد دراسة عن الإمام الرازيّ ومكوِّنات شخصيَّته العلميَّة وكتبه وملخّص لآرائه الأصوليَّة. وقد كتبت ذلك في مجلد ما زال مخطوطاً لم أنشره رغم مرور ما يقرب من خمسة وثلاثين عاماً على الفراغ منه, ومع قناعتي بأنّه صالح وجاهز للنشر, وأنّه أفضل من كثير مما كتب ونشر عن الفخر الرازي.

لكنّني لم أفعل ذلك؛ لأنَّ من الصعب جداً – في نظري المتواضع - أن يكون الإنسان محايداً موضوعيّاً ودقيقاً في أمر كهذا للعواطف والمشاعر فيه نصيب لا ينكر.

ثم كتبت عن شيخي إمام العراقين الشيخ أمجد بن محمد سعيد الزهاويّ علاّمة العراق, وعنيت بنشرها مقدّمة لكتاب يمثّل ذكريات بعض معاصريه عن مواقفه.

كما أعددت مقدّمة عن حياة شيخي الجليل الشيخ عبد الغني محمد عبد الخالق – الذي اعتبره نهاية الأصوليّين ونشرت مقدّمة لكتابه النفيس "حجيَّة السنّة" ضمنّتها ما كتبته في ترجمته, ثم كتبت شيئاً عن الشيخ الغزاليّ نشر في مجلة "إسلاميَّة المعرفة".

وكتبت مقالة شاركت فيها إخوان وأصدقاء الشيخ القرضاوي بمناسبة بلوغه السبعين ونشرت في الكتاب الذي صدر عن الشيخ بتلك المناسبة.

وهذه الدراسة عن الصديق العزيز الأستاذ الدكتور يوسف القرضاويّ حملني على إعدادها رغبتي في تقديم نموذج معاصر من نماذج العلماء الذين تشتد حاجة الأمَّة إلى أمثالهم ومعرفة شيء من سيرهم في هذه المرحلة العصيبة من تاريخ أمتنا لأسباب

مختلفة, منها موسوعيَّتهم, وهذا يشجع طلبة الجامعات والكليّات الشرعيَّة على اتخاذهم نماذج يترسمون خطاهم في إنماء معلوماتهم ومعارفهم التي لم تعد الجامعات الإسلاميَّة, ومعاهد الدراسات الشرعيَّة قادرة على تحقيق شيء من ذلك, فإذا عرفوا نموذجاً مثل الشيخ القرضاويّ. حفظه الله فإنّ ذلك سوف يشجعهم, ويفتح باب الأمل أمامهم بأنّ في مقدورهم أن يصنعوا الكثير, وأن يلموا بجملة كبيرة من العلوم والمعارف إذا طلبوا العلم لوجه الله. ولن يتوقف ذلك على ما يتلقونه في الجامعات والمعاهد؛ بل إنَّ الإرادة والعزيمة الصادقة, والرغبة في اتِّساع المعرفة وإنماء الخبرة والتجربة سوف يساعدهم ذلك – كلّه – على تجاوز قصور أو قلَّة ما تقدمه الدراسات الرسميَّة والنظاميَّة من خبرات ومعارف.

فإذا أضيف إلى ذلك استنارة الفكر, ونفاذ البصيرة, وحمل هموم الأمَّة, وبذل الغالي والنفيس في متابعة قضاياها؛ فذلك يقدم لعلماء الأمَّة ونخبتها نموذجاً آخر يحتذى به في "منهج قرن العلم بالعمل".

لماذا القرضاويّ؟ :

وحين قلَّبت الطرف في أرجاء العالم الإسلاميّ وجدت الشيخ يوسف القرضاوي نموذجاً متميّزاً يمكن تقديمه لأهل العلم الراغبين بأن يجمعوا بين "الأصالة والمعاصرة" "بين العلم والعمل" "بين الفكر والفقه" "بين الرسالة والدعوة" "بين الغيرة الإسلاميّة العالية والانضباط" "بين المرونة والالتزام" فهو هامة عالية, وقامة سامقة تستحق أن يتطلع إلى محاكاتها شباب العلماء في سعة الفقه ومرونته, وفي طاقة الفكر واستنارته, وفي الغيرة والحميَّة للدعوة الإسلاميّة, والانتصار لها.

ولذلك فإنَّه يسعدني أن أهدى إلى قرائي الكرام وإلى شباب الأمَّة الإسلاميَّة الناهض والمتطلِّع إلى النهوض بحثاً كنت أحاول إخراجه منذ سنين. ولكن الأمور مرهونة بأوقات يقدرها الله – تبارك وتعالى ويهيئ لها أسبابها.

ولست غريبًا عن الدكتور القرضاوي فلقد عرفته – في البداية – بعد وصولي إلى القاهرة في ١٩٥٣/١١/١٥ للدراسة في الأزهر ورأيت فيه الأزهري الأديب

الشاعر الذي يتداول الشباب بعض شعره وأناشيده باعتزاز، وحين حالت الأحـــداث بعد ذلك دون التواصل معه في مصر؛ سعدت بلقاءات متكررة معه في مجالات الحياة العلميَّة: في الندوات والمجامع الفقهيَّة والمؤتمرات وغيرها من مجالات اللقـــاء في قطـــر والخليج وأوربا وأمريكا وماليزيا وغيرها ولقد عرفت فيه خصالاً قل أن اجتمعـــت في عالم من علماء العصر أو داعية أو مفكر إسلاميّ. فعلماء عصر "ما بعد الموحـــدين" كما يقول مالك بن نبي – رحمه الله – حرصت جمهرتهم على ممارسة العلم والـــتعلُّم والتعليم فقط، ووضعت بينها وبين الفكر والدعوة خطاً فاصلاً ظنّاً من تلك الجمهرة – من أهل العلم – أن تلك الممارسة تشتمل على جل إن لم يكن كل مـــا يحتاجـــه الإسلام والمسلمون من معرفة إسلاميّة : فوظائف الفتوى والقضاء والتدريس والإمامة والخطابة، والنصح تتناول كل ما يتوقع أو ينتظر من "الفقيه أو عالم الشرع" أن يقدمه للأمَّة. وهذا خلاف ما ألفته الأمّة من علمائها الربّانيين في عصور ازدهار "الحـــضارة الإسلاميَّة" وتألُّق علمائها.

الخلافة الرُشدة :

فبعد الخلافة الراشدة التي كان من أهم مزاياها اجتمـــاع الـــسلطتين الزمنيَّـــة والمعرفيَّة في أولئك النجوم التي لم تر البشريَّة نظائرها في أيَّة ناحية أو دولة عبر تاريخها الطويل – من حيث الجمع بين الحنكة السياسيّة والمزايا القياديَّة، والخبرات الاجتماعيَّة والطاقات الإبداعيّة والاجتهاديّة مع الرأفة بالرعيَّة، والرحمة بها وتجنيبها العنت والمشقة؛ لأنَّها كانت خلافة على منهاج النبوّة: فالخليفة من الأمَّة، وليس متسلِّطاً عليها، وهو أجير لها وليس سيِّدا عليها، أو مستبداً بشأنها، وأمر الأمّة شورى بينها، لا أمر يفرض عليها من فوق، ويفرض عليها ما يشاء الاستبداد بعد ذلك, ولـــذلك فـــإنَّ الـــسمع والطاعة – والحالة هذه – إنّما هي لقرارات الأمّة، والخليفة – هـــو الأجير عنـــدها والناطق الرسميُّ باسمها, والمتابع لتنفيذ إرادتها، وتطبيقها، والنظر فيما تؤول إليه تلـــك السياسات وتطبيقاتها لمراجعتها وتعديلها. فالشرع يميز الحق من الباطـــل, والميـــزان والواقع يستجيبان لما يصلح حياة الناس, ويظهران ما يفسدها!!

دور الفقيه بعد الراشدين :

ولما انتهت فترة "الخلافة الراشدة", وآلت السلطة إلى قيادات لم تكن تجمع بين تلك المزايا والقدرات والكفاءات كلِّها – كما أنَّ رقعة دار الإسلام قد اتسعت، والإسلام قد انتشر خارج "قاعدته الأولى ومنطلقه" في جزيرة العرب أخذ علماء الأمة يعملون على ملء الفراغ واستكمال نقص أولئك الأمراء أو الذين جاؤوا عقب الخلافة الراشدة فبالإضافة إلى قيامهم على الجانب العلميّ والمعرفيّ وصيانة وحفظ أصول ومصادر تكوين الأمَّة – قاموا بمهام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومراقبة الحاكمين، وإسماع صوت الأمَّة إليهم ومحاولة الحيلولة بينهم وبين الاستبداد الذي كان كثير منهم يتهافتون فيه تهافت الفراش على الضوء أو النار، كما كانوا يمارسون القيام بمهام التأليف بين فصائل الأمّة، والدفاع عن أهل الذمَّة وصيانة حقوقهم، وحماية الضعفاء من الأقوياء.

وقد أصَّلوا لذلك – كلّه. ووضعوا له من القواعد ما لم يستطع علماء النظم القانونيَّة والاجتماعيَّة في كثير من الأمم أن يأتوا بمثله فنجد في القواعد الأصوليَّة خاصَّة عدداً كبيراً من الأصول حين نقوم بدراستها وتحليلها ومعايرتها في ضوء ما توصلت البشريَّة إليه اليوم فإنَّنا سنجد ما لا ينقضي منه العجب: فحقوق الإنسان تصان بالمقاصد الشرعيَّة وبأصل الكرامة الإنسانيّة. وحقوق الأمَّة تصان بالمصالح بسائر أنواعها، وحقوق أهل الذمة وحقوق الجار وحق الإنسان في التعبير والرأي والخصوصيّات المتنوّعة، وحريَّة العبادة كل أولئك موضع عناية الشارع ورعايته. وكانت القيم العليا الحاكمة من "توحيد وعمران وتزكية" وما تفرع عنها من عدل ومساواة وتحرّر موازين ضابطة من العسير جداً على المثقفين تجاوزها أو اللعب بها، بل نجد أنَّ حكام الجور في بعض الأحيان – يضيقون ذرعاً بهذه الأصول أو القيود فيصطفون لهم حواشي من ضعاف أصيبوا برقة في الدين وضعف في النفس وربّما كان بعضهم من أولئك الذين أدركتهم "غفلة الصالحين"([1]) ليعملوا على سلوك مسالك

[1]– مصطلح يطلقه بعض رجال الحديث على نوع من الرواة.

"التأويل، والانحراف في التفسير لتلك القواعد والأصول" لتسهيل سبل الانفلات لأولئك الحاكمين من تلك القواعد، وتجاوزها فكان العلماء الربّانيوُّن يقفون لهؤلاء بالمرصاد ينفون عن دين الله – تعالى – تحريف الغالين، وانتحالات المبطلين وتأويلات الجاهلين، ويحوطون تلك القواعد بما يحفظها ويحميها من انتهاكات أولئك المجترئين عليها. والباحث المحلِّل قد يجد في تلك المعارك الفكريَّة حول تلك القواعد اليوم رياضة ذهنيَّة وتمارين عقليّة بيد أنّها كانت في عصورهم معارك ومساجلات أسلحتها عصارات الأذهان, ودماء القلوب, وماء العيون، فحين يؤصِّل علماء الأمَّة "للإجماع" مثلاً لا يفعلون ذلك لمجرّد التأصيل لدليل أصوليّ يمكن أن يولِّد فقهاً أو أحكاماً فقهيَّة فحسب, بل إن لهذا الدليل قراءة إضافية وهي أن لا يعطوا لأولئك الحاكمين فرصة الاستفادة من تلك الفتاوى الفرديَّة التي قد يحصلون عليها من أولئك الذين يعتمدون عليهم لإصدار تلك الفتاوى تسويغاً لما قد يفعلون. وقد يأتي من هؤلاء من يؤصِّل لما عرف "بالإجماع السكوتيّ" فإذا أفتى هؤلاء الذين رضوا بأن يكونوا من حواشي الطغاة بشيء، وسكت العلماء الآخرون خوف الفتنة أو جور السلطان فيمكن أن يعد ذلك إجماعاً – في نظرهم – وما هو به. وقد نجد مثل ذلك في استخدام قواعد المصالح، ورفع الحرج، والمقاصد وسد الذرائع والأعراف والعادات والاستحسان وأحياناً إدراج بعض القضايا فيما يسمىّ "بالسياسة الشرعيّة" و"المصلحة" بأن تكون معتبرة في نظر هؤلاء – وفقاً لفهمهم – وما هي بمعتبرة وهكذا يتدافع الحق والباطل وينتصر الحق في النهاية, ويزهق الباطل.

الفقيه والرقابة على السلطة :

المهم أنّ "علماء الأمّة الربانيِّين" مثَّلوا دور "الرقيب والمعارضة والبرلمان، في تقييد السلطان" وتسديده وترشيد سياساته إضافة إلى وظائفهم الأخرى المعتادة، لذلك فإنّ الأمَّة منحتهم ثقتها، وأوقف أغنياؤها الأوقاف والحبوس على مدارسهم ومساجدهم ليستغنوا عن صلات السلطان وجوائزه وهداياه؛ وليبقوا أحراراً يدافعون عن قضايا الأمَّة، ويحمون ثغورها في الداخل والخارج. (والاستقلال المالي والاقتصاديّ للعالم

يحرّره من عوامل الخوف على النفس والعيال والرزق إن لم يكن من حملة نفسيَّة العبيد بطبيعته).

لقد انطلق العالم المسلم لممارسة هذا الدور من وعيه بمهمة الاستخلاف، وإدراكه للأمانة التي أؤتمن الإنسان عليها، ودور الابتلاء ونجاحه فيه، ذلك الدور الذي تتوقف عليه سعادته في الدارين: السعادة التي تتمثل في الدنيا بالحياة الطيبّة وفي الآخرة بالجزاء الإلهيّ المتمثّل في الجنة.

كما أدرك علماء الأمَّة القيم العليا الحاكمة التي كُلّف البشر بتوخيها في كل ما يأخذون ويدعون وهى قيم "التوحيد والتزكية والعمران". وما تفرَّع عنها وبنى عليها، وهى القيم التي لا يمكن إلا لعباد الرحمن النهوض بأعباء الالتزام بها وتحقيقها في الأرض. فالإنسان مكرّم ليُستخلَف: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: ٧) وحريّته مظهر من مظاهر ذلك التكريم الآلهيّ الذي لا يستطيع أحد كائناً من كان أن يسلبه إيَّاه أو ينقص منه إلا بسلطان من المنعم المتفضل سبحانه وتعالى. قال تعالى محدّداً بوضوح أهم تلك النعم:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ * فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تشْكُرُونَ﴾ (سورة النحل : ٧٣-٧٨).

وحين يذكر الله – تبارك وتعالى – الطير صافَّات ويقبضن، مسخّرات في جـــو السماء ما يمسكهنَّ إلا الله – فإنَّه بذلك ينبّه إلى مدى العدوان الذي يمارسه أولئـــك الذين يحاولون مصادرة حريّات عباد الله على خلق الله إنّهم يترلون بالإنسان المكـــرّم المستخلف عن مرتبة الطائر وهو حيوان. والغراب – من الطير – وقد علَّم ابـــن آدم الظالم الذي قتل أخاه بجهله وعدوانيَّته وحسده وحقده، ثم عجز بكل تلك الـــصفات التي أوهمه غروره أن إتصافه بها يعطيه الحق في أن يكون الأقرب لله –تعالى– فكـــان الأبعد، وذلك شأن أولئك الطغاة المستبدِّين الذين لا يبلغ أحدهم بوعيـــه مـــستوى الغراب الغريزي أو وعيه ومع ذلك فإنّه يجعل من نفسه حكماً على عباد الله متفضلاً عليهم، مصادراً لحريَّاهم، منتهكاً لحرماهم، معتدياً على إنسانيّتهم، سالباً لأهم ما منَّ الله – تبارك وتعالى – عليهم به، محاولاً أن يستعبدهم من دون خالقهم، لا لشيء إلا لما استقر في ذهنه المريض من غرور كاذب خدعه عن نفسه, فينادى مـــرة بلـــسان المقال: "مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي" (القصص : ٣٨) و "أَنَـــا رَبُّكُـــمُ الْـــأَعْلَى" (النازعات : ٢٤) وما أكثر ما ينادى بلسان الحال بمثل تلك العبارات الفاجرة مغلّفـــاً لها بما يشاء الغرور الكاذب أن يلفها به.

العلماء وتضحياهم وجهادهم :

ولذلك فإنَّ علماء الأمّة ربّما جعلوا حريَّاهم فداءً لحريّات الأمَّة، وحقوقهم فداءً لحقوقها فأدخل بعضهم السجون وقتل بعضهم، واستشهد الكثيرون، وكتب الطبقات والتاريخ حافلة عاطرة بأسماء أولئك الذين ربما أحرقت كتبهم واتُّهِمـــوا في دينـــهم، وطوردوا من مكان لآخر. ولم يكد يخلو عصر من العصور من فصائل مـــن هـــؤلاء وأولئك، والأمَّة مدينة بهُويَّتها، وتاريخها، وحفظ حقوقها، وتسجيل المواقف المنيرة في سجلها لأولئك الأعلام من العلماء. ولذلك منحتهم الأمَّة ثقتها، والتفـــت حـــولهم، واعتبرهم مصابيحها التي تهتدي بها في ظلمات الحياة. تلجأ إليهم عند كـــل ملمَّـــة، وتستنيـــر بهم في كل مدلهمة, وقلَّ أن خذلها أولئك الأعلام، أو خيبّوا رجاءها، ولولا صمود الكثيرين منهم لما تغلَّبت الأمة على الحروب الصليبيَّة ثم حـــروب وغـــزوات

التتار، ولا تحرَّرت من الاستعمار الحديث من حملة نابليون على مصر حتى استقلال معظم البلدان المسلمة, ففي كل تلك الحروب والمعارك كان العلماء الربانيُّون القادة والمجاهدين. وتصفّح تاريخ أيّ بلد من بلاد المسلمين يشهد لهذه الحقيقة الناصعة التي لا يمكن المكابرة فيها.

وأحسب – ولا أزكي على الله أحداً – أنَّ فهم شيخنا الخضر حسين التونسيّ وابن باديس والسيد الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا والإبراهيمي وعلاّل الفاسي وشيخنا أمجد الزهاوي, وابن باز وشيخنا محمد فؤاد الآلوسيّ وأبو الحسن الندوي والإمام الحكيم, والإمام الخالصيّ, والسيد محمد باقر الصدر, والشهيد عبد العزيز البدريّ والشيخ محمد الغزاليّ ولا شك – عندي – أن أخانا المترجم له الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي من بين هؤلاء الأئمة الأعلام المجاهدين.

القرضاوي بين الفقيه والمفكّر :

منذ القرن الثاني الهجري، بل منذ سنة أربعين للهجرة وانتهاء الخلافة الراشدة و"الفقيه" يحتل مكانة هامَّة في المجتمع، ويتطور مفهوم "الفقيه" وينمو تبعاً لنمو وتزايد الفقه. ونموّ دوره ودور الفقيه في المجتمع. حتى إذا بدا الانقسام واضحاً بين من أدرجوا تحت مفهوم **"أولى الأمر منكم"** وهم الحكّام والعلماء، وشاع استعمال مصطلحي **"أهل السيف وأهل القلم"** بعد ذلك؛ صار المتبادر إلى الأذهان عند إطلاق مصطلح "أهل القلم" أنّهم الفقهاء سواء أكانوا من أولئك الذين يمارسون "الاجتهاد المطلق" أو الاجتهاد المقيَّد المحدّد. كما أنَّ لقب "عالم" صار لقباً خاصَّاً بأولئك المبرّزين في "المعارف النقليَّة" أو ما اصطلح عليه "بالعلوم الشرعيَّة"؛ لأنّ "العلم" لم يكن يطلق إلا على الخطاب القرآنيّ، والسنّة النبويَّة، كما قال ابن عبد البر : **"العلم قال الله قال رسوله"**, و العلوم الشرعيَّة هي تلك العلوم والمعارف التي تم تأسيسها حول "الوحي" لخدمته أو لتفسيره وبيانه، أو معارف وأدوات الاستنباط الفقهي؟

و لم يكن "الفكر"([1]) بمفهومه الذي برز بعد ذلك شائعاً أو متـداولاً خـارج الأطر الفلسفيَّة : فالكلاميُّون يستعملون مصطلح: "النظر"([2]) وقد يبدله بعضهم "بالفكر" لكنَّ "النظر" هو الأكثر شيوعاً وتداولاً بينـهم. والفقهـاء يـستخدمون "الاجتهاد والاستنباط والاستدلال" وما إليها، وهي وإن كانت فكراً لكن تداول أهل الاصطلاح كان يدور عليها لا على مفهوم "الفكر"، وعلماء الفرق كانوا يطلقـون "مقالة" اصطلاحاً على الآراء التي تنفرد بها طائفة عن سواها. ومن ذلك كان كتاب الأشعري المعروف "مقالات الإسلاميّين".

لكنَّه لا شيء من اللُّغة أو الاصطلاح يمنع من إطلاق لفظ "الفكر" على كل ما أنتجته العقول المسلمة من فقه وكلام وتفسير وأصول وشروح للأحاديـث والـسنن فذلك كلّه فكر إسلاميّ أو فكر مسلمين دائر حول النصِّ أو هو ممّا استنبط منه.

بل لا شيء يمنع من إطلاق لفظ "فكر إسلاميّ" على ما أنتجه المنتسبون إلى المحيط الاجتماعيّ الإسلاميّ من أهل الذمّة فيما لم يكن في شأن دينيّ، لأنَّه فكر قـد أنتج في محيط اجتماعيّ تسوده القيم الإسلاميّة، وذلك يجعله جديراً بـأن يوصـف بالإسلاميّة.

[1]- الفكر هو إعمال العقل في الأشياء للوصول إلى معرفتها, ويطلق بالمعنى العام على كل ظاهرة من ظواهر الحياة العقلية.

[2]- النظر هو الفكر الذي تطلب به المعرفة لذاتها, لا الفكر الذي به العمل أم الفعل وجملة القول في الفكر والنظـر أن الفكـر يطلق على الفعل الذي تقوم به النفس عند حركتها في المعقولات, أو يطلق على المعقولات نفسها فإذا أطلق على فعل الـنفس دل على حركتها الذاتية وهي النظر والتأمل, وإذا أطلق على المعقولات دل على الموضوع الذي تفكر فيه النفس وهو مرادف للفكرة, ومنه قولهم : "الفكر الديني, والفكر السياسي والفكري هو المنسوب إلى الفكر تقول : الحياة الفكرية, والعمل الفكـري, والنظر كالفكر فعل صادر عن النفس لاستحصال المجهولات من المعلومات, والمجهول من كل معلوم على أي وجه كان, بل لا بد له من معلومات مناسبة, وترتيب معين فيما بينها, وهيئة عارضة لها بسبب ذلك الترتيب. انظر معجم الفلسفي للـدكتور جميل صليبا, ج٢, ص١٥٤, ٤٧٢.

لقب العلماء :

أنَّ لقب العلماء قد خصَّصه العرف الإسلاميّ بالمتخصّص في علوم الــشريعة، وعُزِّز ذلك العرف بسائر الأدلة التي وردت في بيان "فضل العلم وأهله"، وسمو منزلتهم والتأكيد على مسئوليَّة العلماء في الأمَّة وعنها، وكونهم موضــع القــدوة والمثــال, والنموذج لسائر فصائل الأمَّة، وأنَّهم المسئولون عن إقامة ركني "الأمــر بــالمعروف والنهي عن المنكر" فيها حين تختلط الأمور، وتلتبس السبل، وتناول مكانتهم الشعراء والأدباء فهم "مصابيح الدجى" وهم "النجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم"([1]) وهــم مــن يحكمون على الحكام، لا العكس فهم صدور الأمَّة ووكلاؤها، وقادتها عندما تبــدو المعارضة ضروريَّة، وهم ملح البلد، وملح الأمَّة لا يصلح شيء بدونهم، ولا يــستقيم الأمر عند تجاوزهم, وقد ألفت الأمَّة أن تلجأ إليهم من طغيان الطغــاة، واســتبداد المستبدِّين وغرور المتجبِّرين من الحكام: فلم يخيِّب علماء الآخرة -منهم- رجاءها، ولم يخذلوها، أو يتخلَّوا عن مصالحها وقضاياها.

فهم حرَّاس الدين، وحماة الأمَّة. وإذا كان المستبدُّون من الحكَّام قد همّشوا الأمَّة بتهميش الشورى وعدم التأسيس لها بشكل يجعل لها دوراً مناسباً في حياطة مقدّرات الأمَّة ومصالحها بما يحفظها فقد حاول كبار العلماء أن يسدُّوا الثغرة ويقوموا بما تقوم به المعارضة البرلمانية في البلدان الديمقراطيّة في أيامنا هذه. فما أكثر ما تصدى علمــاء كبار لحكام طغاة بحيث أوقفوهم عند حدودهم، ودرأوا عن الأمَّة كثيراً من الشرور والمصائب. ولم يعدم عصر من عصور المسلمين أو جيل من أجيال الأمَّة من نماذج من هؤلاء العلماء الربّانيّين- القائمين بالحق وعليه. حتى نهايات القــرن التاســع عــشر الميلادي، بل حتى نهاية الثلث الأول من القرن العشرين فالذين تصدوا للتجديد عــبر العصور كانوا من العلماء, والذين قادوا حركات التحرير والتحرّر كانوا منهم.

---

[1]– جزء من حديث ضعيف وهو "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم" رواه البيهقي, وأسنده الديلمي عن ابن عباس. انظــر كشف الخفاء للعلجوني, ج١, ص١٣٢, حديث رقم (٣٨١).

والذين حاربوا الاستعمار وأخرجوه كانوا منهم – أيضاً. وهذا لا يعنى إنكارا لأدوار فصائل الأمَّة الأخرى في هذه الأمور وفي القضايا العامة لكن القيادة على الدوام كانت معقودة اللّواء لهم دون منازع. حتى انهيار الخلافة والسلطنة العثمانيّة عام (١٩٢٤) وقيام "ثورة التاسع من شعبان القوميَّة العربية" عام (١٩١٦) قبلها وتمخض الحرب العالميَّة الأولى عن احتلال شامل لسائر البلاد العربيَّة ومعظم البلدان الإسلاميّة. وقام نظام عالميّ بديل عن الخلافة والسلطنة، وبروز الكيان الصفويّ ثم (القاجارىّ) في إيران.

بداية تراجع دور العلماء :

بعد تتابع تلك الأحداث الفاجعة برزت ظاهرةُ خطيرة جداً هي أخطر من ظاهرة الاحتلال نفسها، وهى ظاهرة قيام قيادات جديدة للأمة غير قيادات العلماء همَّشت الحضارة والثقافة الإسلاميّة, وفتحت الأبواب على مصاريعها لاستيراد حلول لمشكلات الأمَّة من خارج النصّ الموحى، وخارج الفكر والاجتهاد و الدين وخارج محيط الأمّة كلّه. وسواء بدأت بواكير ذلك بعمليَّات النقل عن الغرب التي قام بها سليم الثالث (ت : ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م)، ثم محمد علي (ت : ١٨٤٩م) في مصر، أو أنها بدأت مع غزو نابليون لمصر (١٧٩٨م) فإنّ أحداً لم يكن يجرؤ على استيراد حلول من خارج الأطر الإسلاميّة لمشكلات وقضايا "الكيان الاجتماعيّ الإسلاميّ" قبل تلك المرحلة.

لا ينكر أنَّ هناك قوانين وسياسات وإجراءات قد بدأت بالظهور في الدولة العثمانيَّة وفى كثير من الأقطار الإسلاميّة لكن أصحابها كانوا يغلّفونها دائماً بالغلاف الإسلاميّ، ويؤصِّلون لها من داخل التراث الإسلاميّ و لم يكن حاكم أو حكومة تجرؤ على استيرادها صلعاء مكشوفة إلا بعد إلغاء "الخلافة والسلطنة" على يدي كمال أتاتورك – عاملة الله بعدله –. وهنا قد بدأت الأمَّة لأول مرة في تاريخها تتقبل فكرة

استيراد حلول وقضايا ومعالجات من خارج المحيط الإسلاميّ وتستنبتها في البيئات الإسلاميّة.

ونستطيع أن نلحظ هنا بداية تراجع لدور العالم والفقيه، وتقليصاً لمكانته في المجتمع : فالقوانين التي بدأت تجتاح البلدان الإسلاميّة صارت مرجعيّتها غربيَّة، وكذلك الدساتير الحديثة. كما أنَّ بروز العلوم الطبيعيَّة والتقنيَّة وآثارها في تيسير شئون الحياة أدى إلى نوع من الدهشة والانبهار الّذين عمَّا البشريَّة. وبدأت كلمة "العلم" تحتل الأذهان، لا بمعنى "العلم الشرعيّ"، بل بمعنى العلم الذي حقق تلك الإنجازات الهائلة في المواصلات والاتصالات والطب والصناعات. وما إليها وبعد أن برزت الأفكار المتصلة ببناء "الدول الحديثة القوميّة" والإقليميَّة في العالم الإسلاميّ" بديلاً عن الدولة الإسلاميّة الموحدة، أو الإمبراطوريَّة العجوز، كما كان يسميها البعض، أو دولة "الرجل المريض" كما يسمِّيها البعض الآخر، لم يعد "العالم أو الفقيه" قادراً على ممارسة الدور الذي كان يمارسه سابقاً، فمارس البعض دوراً جهاديّاً في دعوة الأمَّة إلى الجهاد للتحررّ من الأجنبيّ، وانزوى البعض في مساجدهم، أو مدارسهم، وصاحب ذلك هجوم شرس على الأوقاف جرَّد العلماء من أهم المقوِّمات التي كانت تساعدهم على استقلالهم الماليّ واستغنائهم عن السلطان، واستقطاب الطلاب، ومساعدة الأمَّة دون الاحتياج إلى أموال الحكام أو وظائفهم بكل القيود التي تحيط بها.

الفقيه والمفكر :

وهنا بدأت تبرز لسدّ الفراغ قيادات بديلة تمثّلت في حركات إسلاميّة حاولت أن تجمع بين "الأصالة والمعاصرة" ومع أنّ الحاجة إلى هذه الصيغ كانت ماسَّة، لكنّها لم تأخذ شكل تطوير لدور "العالم والفقيه" وبناءٍ عليه، أو الانتقال به من الممارسة الفرديَّة الشخصيَّة ذات الطابع الذاتيّ إلى الإطار الجماعيّ الذي ينمّيه ويثريه، ويعوِّضه عمَّا فقد من مواقعه، بل استدرجت تلك الحركات لطرح نفسها بديلاً عن "العالم أو الفقيه التقليديّ"، خاصَّة حين وجدت شيئاً من المعارضة لجهودها من بعض المراجع

والرموز الفقهيّة. فمارست بوعي أو بدونه عمليّات وأطروحات أدت إلى المساهمة في تحجيم دور العالم, وصارت تعارض إعطاء "العالم الفقيه" دوراً في الحياة الإسلاميّة العامَّة، وتصف أولئك المتشبِّثين "بالتراث الإسلاميّ" أو "حرّاس التراث" – كما أحب أن اسمِّيهم – بالجمود, وتكثر من القول بأنّ الإسلام لا يقبل تقسيم الناس إلى "رجال دين" وغيرهم، وأنّ "هيئة الأكليروس" أو "رجال الدين" صيغة نصرانيّة ...الخ ما حفلت به أدبيَّات نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين منذ عهد الشيخ العطار (ت : ١٢٥٠هـ). إلى عمليات الصراع بين الشيخ عليش (ت : ١٨٨٢هـ) والشيخ محمد عبده (ت : ١٩٠٥م) ثم ما يلي ذلك من معارك ورثتها بعض الحركات الإسلاميّة، ونشطت فيها، وهذه ظاهرة لافتة للنظر عبر تاريخنا الإسلاميّ، ألا وهي "ظاهرة الصراع بين حركات الإصلاح والتجديد" نفسها، وانشغال بعضها بالبعض الآخر بدلاً من تفاهمها على تحقيق الأهداف المشتركة. فلو قدّر لحراس التراث من مشايخ الأزهر أن يتفهموا ما كان الشيخ محمد عبده وأستاذه الأفغاني والآخرون يعملون لتحقيقه فيؤازروهم فيها، وقدِّر للشيخ محمد عبده والأفغانيّ ومن إليهما تفهُّم دور المشايخ التقليديّين، وأنّ حمايتهم لتراث الأمَّة إنَّما هو حماية لذاكرتها وهُوِيّتَها، ولا يمكن بناء حاضر أو مستقبل على ماضٍ ملغىٍّ : فللماضي دور لا ينكر في بناء الحاضر والمستقبل، وقد كان هذا الماضي حاضراً لقوم من الآباء، ومستقبلاً لفريق منهم ثم صار ماضياً بالنسبة إلينا[1]. لو حدث ذلك لكان "ريش الخوافي قوة للقوادم" وربَّما كان حال المسلمين والأزهر خاصَّة غير الحال التي نراها.

إنَّ هذه الثغرة بين رجال الدعوة والحركة ورجال الفقه والعلم أدركت بعض القيادات الإسلاميّة ضرورة غلقها. وكان في مقدِّمة هؤلاء السيد رشيد رضا وتلاه بعد ذلك عدد كان أبرزهم في أجيال ما بعد منتصف القرن الماضي الشيخ الغزالي.

---

(١) للمستشار طارق البشرى معالجة متميزة لقضية تضارب حركات الإصلاح، وإحباط بعضها لجهود البعض الآخر. قدمها في دراسة نشرها للمرة الأولى مركز دراسات الوحدة. وقدم ملخصاً عنها في ندوة التغيير في الكويت عام ١٩٩٤.

ثم الأخ الدكتور يوسف القرضاوي، وآخرون لكن الشيخ القرضاوي يمتـــاز على غيره بأنَّه بقى يرابط في كل تلك الثغور طيلة عمره المديد: فتراه في خندق الفكر والدعوة والحركة، وفي خندق الفقه والعلم في وقت واحد. ما غادرهما، ولا انفـــصل عن أيّ منهما. و لم يشعر يوماً بأنَّ هناك أيّ تناقض أو عدم انسجام سائر الثغور التي يرابط عليها فكان نموذجاً للمفكر الفقيه الداعية.

فإذا لقيته بين المفكرين وجدت فيه طاقات فكريّة قد تجعل من لا يعرفه يشعر بأنّه مفكّر متأمّل متفلسف من الصعب أن يجد وقتاً لمعاناة المعضلات الفقهيّة، والقضايا الأصوليَّة.

وإذا لقيته في المجامع الفقهيَّة واللّجان الشرعيَّة ومواقع الفتوى وجدت فقيهاً ذا حس اجتهادي، وقدرة استنبطايَّته عالية، و تَمكّن من أقوال الفقهـــاء و قواعـــدهم و أصولهم، و قدرة علي تمحيصها و نقدها و التخريج عليها وإبراز عللـــها، ومناقـــشة أدلتها، بل قد وجدته في مواقف كثيرة يوظِّف فكره في خدمة فقهه وفقهه, في إثـــراء أفكاره. فكان بذلك نموذجاً متميِّزاً.

نموذج متميز :

حين أسَّسنا "جامعة العلوم الإسلاميّة والاجتماعية" "جامعة قرطبة" حاليّاً كنت في كثير من المناسبات حين أسال عن النموذج الذي ترمى بـــرامج هـــذه المؤســـسة لإيجاده؟ أقول لسائلي سواءً أكان من الغربيّين أو من المسلمين المقيمين في الغـــرب : أتعرف الأفغانيّ ومحمد عبده ورشيّد رضا أتعرف الغزالي أتعـــرف الـــشيخ يوســـف القرضاوي فإذا قال: لا, قلت له : لا بد أن تعرفهم، فإنك إن لم تعرفهم فحـــاول أن تعرفهم، إذ بدون ذلك لن يكون سهلاً عليّ أن اشرح لك الأنموذج الذي نهـــدف أن نضعه أمام طلابنا في هذه المؤسَّسة ونصنعهم وفقاً لمواصفاته.

وإذا قال: إنَّه يعرفهم، قلت له : ذلك هو النموذج الذي نريد أن نكثر منـــه، والذي نرجو أن تتجه الجامعات الإسلاميّة في العالم إلى إنتاج مثله.

حين كنت رئيساً للمعهد العالمي للفكر الإسلامي استكتبنا الشيخ الغزالي يرحمه الله ورجوناه أن يكتب للأمة كتاباً يساعد على لم شمل الأمة وجمع كلمتها في موقف متقارب إن لم يكن موحداً مما احتوته كتب الحديث من سنن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاصة بعد أن نبتت نابتة لم تعد تفرق بين خبر الواحد وغيره ولا بين ما كان فيه شذوذ أو علة قادحة أو أي إشكال من إشكالات المتون وإنما كانت تُقْبِلُ بعقلية العوام التي لا تتقن من علوم الحديث والسنن والفقه والأصول إلا بعض المقتطفات المنتقاة بعناية على عادة أبناء هذا العصر في الانتقاء والتساهل فانبرى الشيخ الجليل نسأل الله له الرحمة لذلك وكتب كتابه الشهير (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) وسارع الكثيرون إلى مهاجمة الشيخ ومهاجمة كتابه ومهاجمة المعهد وشخص الفقير إليه تعالى على صدور ذلك الكتاب وبلغت الردود عليه ثمانية عشر رداً على مستوى الكتب فضلاً عن الأشرطة المسجلة والخطب والمحاضرات وقد امتلأت تلك الردود بعبارات كثير منها كان هابطاً لا يليق بالحوار العلمي الموضوعي ولا يمكن أن يندرج تحت أي مستوى من مستوياته.

وهنا اقترح الشيخ ووافق مجلس أمناء المعهد آنذاك أن يستكتب الشيخ القرضاوي كتاباً في بيان منهج التعامل مع السنة ليعالج الآثار التي تركها كتاب الشيخ وما صدر من ردود عليه ويعيد الأمر إلى نصابه باعتباره إشكالية من إشكاليات فكر المسلمين القديمة الحديثة التي ما يزال الباب مفتوحاً لتقديم المعالجات فيها.

وكان الشيخ الغزالي رحمه الله يقول متندراً في مناسبات كثيرة "يا أخ طه مثلي ومثل القرضاوي مثل الشيخ محمد عبده ورشيد رضا فمحمد عبده فقيه جليل ومفسر كبير وجرئ في أفكاره وقد لا يأبه – وهو يعرض أفكاره – بآثارها على العامة, وكان رشيد رضا يضع أفكار الشيخ في قالب علمي يستطيع الناس أن يتقبلوه وأن يدركوه, وهذا هو موقع القرضاوي مني فإذا كنت أتمتع بمثل جرأة الشيخ محمد عبده في عرض أفكاره فإن القرضاوي يستطيع أن يضع هذه الأفكار في قوالب فنية وصيغ علمية يقبلها الجمهور ولا يرون فيها ما يستفزهم أو يصطدم بمسلماتهم. فاستكتب

القرضاوي في هذا الموضوع لكي يعدل الكفة. فضحكت وقلت له مرة : وماذا عني أنا؟ فقال : أنت من يصنع الأفكار ويحولها إلى خطط عملية وجزاك الله خيراً.

وبالفعل تم استكتاب الأستاذ القرضاوي و لم يخب ظن الشيخ الغزالي, فإن لهجة المهاجمين قد خفت, وتلك الأصوات المستنكرة قد هدأت ولانت بعد أن أصدرنا كتاب الشيخ القرضاوي وأذكر أن الشيخ الغزالي رحمه الله قد زاره وفد من بعض الفئات الإسلامية فقيل له : إن هؤلاء يسيئون إلى القرضاوي وإلى طه جابر ويتهمونهم بالعصرانية وربما (الاستغراب) فاشمأز الشيخ منهم وقال : لا أرغب والله في مجالسة من يطعن في هؤلاء ثم تمثل قول الشاعر:

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم　　من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا

وبعد: فإنَّني إذ أقدم هذه الدراسة عن الشيخ القرضاوي والخارطة الفكريَّة لفكره فإنَّما أفعل ذلك وفاءً بوعد قديم كنت قد وعدته وحالت دون تنفيذه عوائق وأقدار.

كما أنَّني وددت أن أضع – كما أسلفت - بين أيدي طلاب العلوم الإسلاميّة نموذجاً معاصراً يمكن أن يحتذوه، وهم يشقون طريقهم نحو خدمة هذه الأمَّة، وإعلاء كلمة هذا الدين. وخاصّة لأبنائنا طلاب وطالبات "جامعة العلوم الإسلاميّة والاجتماعية" والمستفيدين من برامجها، وكذلك طلاب وطالبات الدراسات الإسلاميّة في العالم كله, فكل هؤلاء في حاجة إلى معرفة هذا النموذج المتميز. خاصَّة والأمَّة الإسلاميّة تواجه اليوم حملة محليّة وعالميَّة لتغيير وتعديل برامج التعليم الإسلاميّ, والكل يبحث يمنة ويسرة لتحديد النموذج الذي ينبغي العمل على إيجاده وتحقيقه بواسطة البرامج المعدّلة المقترحة ولعل الله – تبارك وتعالى – أخَّر صدور هذه الدراسة إلى هذا الوقت لتكون وسيلة لتقديم النموذج الذي نتمنى على المعنيين بتعديل برامج الدراسات الإسلاميّة من المخلصين أن يضعوه في اعتبارهم وهم يراجعون هذه البرامج ويعملون على تعديلها.

لقد حرصت على ضيق الأوقات وكثرة الواجبات أن أدفع بالكتـــاب إلى أبي محمد, كما أرجو أن يقع الكتاب من أبي محمد ومحبّيه موقع الرضا والقبول, وأن يغفر للجميع ما قد يلاحظون من هنَّات أرجو أن يكنّ هيّنات وأن لا يبخلوا علينا بها لعلنا نستدركها في طبعة قادمة.

سائلين العلى القدير أن يحفظ الشيخ الدكتور القرضاوي ويديم نفعه لأمتـــه، ويجعله نموذجاً مثالاً للمفكرين المسلمين ولدعاتهم وفقهائهم وحكمائهم إنَّـــه سميـــع مجيب.

طه جابر العلواني

شهر ربيع الثاني ١٤٢٣هـــ

الفصل الأول

فكر الشيخ يوسف القرضاوي وفقهه ومحاورهما الأساسيّة

شيء من سيرته :

ولد الشيخ يوسف بن عبد الله القرضاوي في قرية مصرية صغيرة, وبها نشأ, وهي كعادة القرى المصرية تجل القرآن الكريم وترفع شأن حفاظه ولقد ذاق في صغره حلاوة الرفعة بالقرآن فكان الناس يقدمونه ليصلي بهم مع حداثة سنة لما يحفظ من كتاب الله.

وقد تعلق قلب الشيخ القرضاوي بالقرآن الكريم منذ نعومة أظفاره فأقبل عليه حتى أتم حفظه وتجويده وهو دون العاشرة فانتقش في صفحة عقله, وانطبع في سويداء قلبه, فكان للقرآن أعظم الأثر في نفسه, وكان هو المنطلق الأساسي لفكره والمفجر لموهبته الأدبية نرى ذلك واضحاً في سلاسة أسلوبه وعذوبة نظمه ونثره.

ثم كان الأستاذ حسن البنا – مؤسس جماعة الإخوان المسلمين بما توافر لديه من مواهب متعددة وقدرات عالية في الدعوة والإرشاد وما تقتضيها من ذرابة في اللسان, وفصاحة في المنطق, وتأثير فعال فيمن حوله, وجدة في العرض, نقول : كان الأستاذ البنا بهذا كله أهم شخصية معاصرة أثرت في الأستاذ القرضاوي حتى صارت مثلاً له.

يقول الشيخ القرضاوي : إن أعظم الشخصيات أثراً في حياتي الفكرية والروحية هي شخصية الشهيد العظيم حسن البنا مؤسس كبرى الحركات الإسلاميّة الحديثة, هذا مع أنّني لم أعايشه كما عايشه غيري, فقد كان رضي الله عنه في القاهرة وكنت في طنطا طالباً ولكنني استمعت إليه في طنطا عدة مرات ورحلت وراءه إلى بعض البلاد لأراه وأستمع إليه, كما قرأت تقريباً كل ما كتبه من رسائل ومقالات....([1]).

ويصف انطباعه عن حسن البنا الذي أثر في شخصيته فيقول : يمثل السهل الممتنع ويؤثر في العقل والقلب معاً, فهو معلم وواعظ بالفطرة الموهوبة والدربة

---

[1]– محمد المجذوب, علماء ومفكرون عرفتهم, ط/٤٦٦.

المكتسبة جميعاً. أذكر أني استمعت إليه وأنا طالب في السنة الأولى من معهد طنطا الابتدائي يتحدث بمناسبة الهجرة النبوية, فوعيت كلامه على صغر سني, وأكاد أحفظه من ذلك اليوم. كان واسع المعرفة, غرير المادة, أخرج مجلة الشهاب الشهرية وكان يحرر جل أبوابها بقلمه, فهو يكتب في التفسير والعقائد ومصطلح الحديث والتاريخ الإسلاميّ وفي أصول الإسلام كنظام اجتماعيّ كل ذلك بإجادة وأصالة رغم أنه لم يكن متفرغاً للعلم والبحث فقد كانت الدعوة ومتطلباتها تستغرق معظم وقته ولذلك كان من وصاياه "الواجبات أكثر من الأوقات فعاون غيرك على الانتفاع بوقته"([١]).

اجتمعت معالم أساسية ثلاثة في حياة القرضاوي, بها تكونت شخصيته, وتشكل فكره ومنهجه, وتحدد أسلوبه وطريقته التي سار عليها فيما استقبل من الأيام, لكن الرجل كان يحاول أن يبتعد عن التقليد ما أمكن.

انطلق القرضاوي – إذن – من (كتاب الله تعالى) يتنسم هداه, ويدعو إليه, ويعمل به, ويحاول جاهداً إقامة شريعته, مستمسكاً بهديه, فهو يقرأ في كتاب الله تعالى : "ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" (سورة النحل : ١٢٥).

ومن كتاب الله كان منطلقه إلى (السُّنة النبويّة) فهي التطبيق العملي والبيان الفعلي للقرآن الكريم الذي أُمر عليه الصلاة والسلام بإتباعه وأمر أصحابه وأمته بالتأسي به – صلى الله عليه وسلم – وذلك بإتباع ما أنزل عليه.

ثم كان (التراث الإسلاميّ) بما اشتمل عليه من موروثات علمية ورؤى فكرية جمعت خلاصات أفكار أجيال الأمَّة المتقدمين والأسلاف الصالحين, فكان اهتمامه بالتراث الإسلاميّ كبيراً, وقد ظهر ذلك جلياً في استفادته بعيونه, ومعرفته برجاله, وبصره بمواطن قوته وضعفه بحيث مكنه ذلك من الاستشهاد بحصيلته الواسعة المتنوعة في مختلف المناسبات.

[1]– انظر المرجع السابق, وانظر كتاب لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر للقرضاوي, ص١١٥.

ومن خلال رحلة حياته التي بدأت بالقرآن الكـريم والدراسـة في الأزهـر, والانخراط في صفوف الحركة الإسلامية ثم الاستقلال العلمي والتدريس؛ يتـضح أن الرجل جمع بين قدرات العالم الأكاديمي المتخصص فإذا عرض لقضية حـدد مـدلول ألفاظه التي يستعملها, وقدم بتعريف المصطلحات التي يناقشها فيحيط بالموضوع بحثاً, مبيناً المدارس الفكرية والآراء المختلفة في القضية, مناقشاً أدلة كل طرف, مرجحاً ما يؤيده الدليل من جهة نظره, وضم إلى ذلك شخصية الداعية الذي يحرص على تقديم ما يفيد, يعرض عن حشو الألفاظ, وفضول الكلام بعبارة يسيرة وألفاظ سهلة بسيطة مخاطباً العقول والقلوب معاً, كاشفاً عن الحكمة من الأحكام كما يراها.

وفي الصفحات التالية سوف نحاول أن نلقي الضوء على مـصادر ومنطلقـات القرضاوي الفكرية بشيء من التفصيل.

المحور الأول : القرآن الكريم

يؤمن الشيخ يوسف القرضاوي بأن المنطلق لحل مشكلات الأمَّة التي تعاني منها اليوم إنّما هو القرآن الكريم, ولقد كان حريصاً على أن لا يكــون ســلبياً مكتفيــاً بالمواعظ, بل سعى للعمل والتطبيق والبرهان العملي على ما يقول فكتــب الكــثير وشارك في الكثير من الندوات والمؤتمرات والمحاضرات لإيجاد البديل الإسلاميّ لما شاع وانتشر فيها من اتباع للوافد المرفوض إسلامياً, وفي مؤلفاته الكثيرة حاول أن يكشف عن صورة ذلك المجتمع القرآني ويجيب عن الشبهات التي يثيرها المعارضــون للحــل الإسلاميّ.

وهو يرى أن مصادر المعرفة في الإسلام هي القرآن فهو المصدر المنشئ, ثم السنة وهي المصدر المبين لمنهج اتباع القرآن المجيد فهما مرجع كل مسلم في معرفة أحكــام الإسلام وهو يفهم القرآن طبقاً لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف. ولقد اتكأ القرضاوي في فهم القرآن الكريم على حصيلة علمية هي نتاج دراسته العلميــة الأزهرية التي أكسبته دراية باللغة وقواعدها وأحكامها, ثم دراية بمدلولات الألفــاظ ومفاهيمها, وهو لا يستجيب لداعي الغوص خلف المعاني والــدلالات أكثــر ممــا يستدعيه المقام, متأدباً بأدب القرآن الذي تعلم منه أن لا يكون السؤال والبحــث إلا فيما هو مفيد من الأمور بحيث يستطيع الناس إدراكه بيسر وسهولة "يَسْأَلُونَكَ عَــنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِــنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (ســورة البقــرة : ١٨٩).

ولهذا لا نرى الدكتور القرضاوي عند تفسيره يزودنا بمصادر واسعة رجع إليها في تفسير الآيات وفهم دلالاتها ولكنه يستخدم حصيلته العلمية وذوقه اللغوي والأدبي لبيان معاني القرآن, ولما كان الرجل داعية في المقام الأول فلقد كان حريصاً علــى أن

يكون ما يكتبه من تفسير آيات إما جواباً لمسألة يحتاجها السائلون أو لبيان معنى مفيد جميل يبرز عظمة هذا الدين أو يمس بإشراقه القلوب.

و لم يؤلف القرضاوي في التفسير تفسيراً بالمعنى الذي تعارف عليه المفسرون. بل كانت دروسه في التفسير هي الأثر الذي وضعه في مصاف المفسرين بالإضافة إلى مـــا بثه بين ثنايا مؤلفاته العديدة تفسيراً ودروسه وخطبه في شتى الموضوعات, ولذلك لم نجد بين مؤلفاته تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم, أو لبعض سوره خلا تفســيراً لــسورة الرعد جمعه بعض تلاميذه من دروس ألقاها الأستاذ.

ويتبين للمتأمل في تفسير القرضاوي للآيات القرآنية في خطبه ومؤلفاته ودروسه وبعض حلقات "الشريعة والحياة" منهجه في التعامل مع القرآن الكريم الذي يقوم على النظرة المعتدلة الشاملة, ويبتعد عن الإفراط والتفريط, والجمع بين القراءتين, ومراعاة الوحدة البنائية للقرآن الكريم, ويربط الآيات ببعضها البعض, ويتتبع اللفظة في القرآن فيذكر معانيها العديدة فيفسر القرآن بالقرآن ثم يفسر القرآن بالسنة ثم أقوال الصحابة والتابعين والأئمة والعلماء فهو تفسير يأخذ من المأثور ويستخدم الرأي, ويجمع بـــين الرواية والدراية, وبين العقل والنقل, وبين الأصالة والمعاصرة, يهتدي بتفسير السلف لكنه يمحص ويرجح, وهو ليس أسيراً لأقوال مذهب ولا مقلداً لطائفة بل يستفيد من التفاسير الموروثة كلها, ولكنه لا يغرق في اللغويات بحيث يخرج القرآن عن مقـــصده وعن هدايته بل يهتم بإبراز مقاصد القرآن وهداية القرآن وعظمة القـــرآن وروعـــة القرآن, وهو تفسير يمكن وصفه بأنه تحليلي وموضوعي وهذا المسلك الذي سلكه هو تطبيق عملي لما أصله من قواعد وأصول نظرية في تفسير القرآن الكريم ففـــي كتابـــه "المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة" ينبه إلى (خطوات المنهج الأمثل في تفـــسير القرآن الكريم) فيجمعها في العناصر الآتية : تفسير القرآن بالقرآن, وتفـــسير القـــرآن بالسنة, والاهتداء بتفسير الصحابة والتابعين, تحكيم السياق, الأخذ بمطلق اللغة.

ثم إنه منطلق من كون الدعوة هي أكبر همه ورسالته في الحياة فإذا فسر القرآن الكريم سلك سبيل التبسط والتيسير وبيان ما يفيد الناس في دعوتهم إلى الهدى وهـــذا

الأسلوب في التفسير لكتاب الله تعالى هو أيضاً تطبيق لما نظر له الشيخ في "ثقافة الداعية" فقد أوصى الداعية بالاهتمام بلباب التفسير والإعراض عن الحشو والفضول والاستطراد, وهو يقول في ذلك : "فالداعية لا يؤثر في عقول الناس وعواطفهم بالمباحث النحوية والبلاغية, والمجادلات الكلامية والفقهية, وإنما يؤثر فيهم بما يجليه من أسرار الحق وأنوار الهداية في كلمات الله([1]).

وإذا كان التراث الإسلاميّ هو أحد منطلقات الشيخ القرضاوي الفكرية, فقد كانت دعوته للاستفادة من التراث الإسلامي في التفسير – قديماً وحديثاً – على شتى اتجاهاته الفكرية والمذهبية والعقدية يؤخذ منها ما يفيد ويترك منها ما وقع فيها من شطط أو غلو, يقول القرضاوي : "....ولا يحسن بالداعية أن يكتفي بكتاب واحد منها – أي من التفاسير ويهمل سائرها, فإن لكل منها ميزة لا توجد – غالباً – عند غيره, فالأولى أن ينهل منها ما استطاع, وأن يقبس من كل كتاب خير ما فيه, ولب ما يتميز به, ويحترز مما فيه من أهواء أو شطحات....."([2]).

وقد اهتم القرضاوي بقضية التعامل مع القرآن فوضع كتابه "كيف نتعامل مع القرآن العظيم" الذي بحث فيه أهمية التفسير, والحاجة إليه وأنواعه, والمنهج الأمثل في التفسير والمزالق والمحاذير في فهم القرآن وتفسيره إلى غير ذلك.

وللتفسير الموضوعي للقرآن الكريم أهمية خاصة لدى الشيخ القرضاوي, فقد أفرد له سلسلة من مؤلفاته تحمل عنوان "من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم" التي أصدر منها : "الصبر في القرآن الكريم" و "العقل والعلم في القرآن الكريم" وهو يقول في ذلك : "ورأيي أن هذا اللون من الدراسات القرآنية جد نافع – وخاصة في عصرنا– ولا يغني عنه وجود التفاسير الكاملة للقرآن كله على النسق المألوف. وذلك لأن المتوفر على موضوع واحد معين وتتبع موارده ومآخذه في القرآن كله مكيه ومدنيه لتجلية جوانبه كلها يهيئ له من العناية والبيان والدراسة ما لا يتهيأ له لو درس

[1]– ثقافة الداعية, يوسف القرضاوي. ص٣٣.

[2]– المرجع السابق, ص٣٢.

أثناء التفسير الكلي العام, كما أن هذا النوع من التفسير يفسح المجال للدارسين في شتى التخصصات ليحاول كل منهم تجلية ما يتعلق باختصاصه من القرآن بصورة أعمق مما لو تناوله غيره. فرجل الفقه يعني بآيات التشريع والأحكام والحدود.... إلخ ورجل الاقتصاد يعني بآيات المال والإنتاج والتوزيع والإنفاق, ورجل الفلك أو الفيزياء يهتم بالآيات الكونية, ورجل التربية يعني بآيات التوجيه والإرشاد, والقصص وغيرها وهلم جرا, وهكذا يعني كل متخصص بموضوع تخصصه ومجال اهتمامه ويركز عليه, ويجدد بما أوتى من علم, وفي هذا فائدة أكبر. وأمر ثالث وهو أن تتابع هذا اللون من التفسير أو الدراسة خليق أن يبين للناس لوناً جديداً من الإعجاز يتمثل في معنى القرآن وحضريته, وسعة ما احتوى من موضوعات قيمة تعد بالمئات بل بالآلاف, مع أنه كتاب محدود الصفحات ويوضع في (الجيب), وأن الذي أتى به رجل أمي في أمَّة أمِّية[1].

وإذا كان لنا ما نتمناه على أخينا الكبير الشيخ القرضاوي في تناوله لمرجعية القرآن فهو أن يتوسع في الفصل الذي عقده عن المخاطر والمحاذير في فهم القرآن وتفسيره ويقدم لنا مناهج للقراءة المعرفية والمنهجية للقرآن الكريم بعد معايشته الطويلة له ومرانه على قراءته وخبرته الغنية الثرية معه لتجاوز مناهج التحليل والتفسير التي أقام بعضها حول القرآن جدراناً وحجباً حالت بين المسلمين وأنوار القرآن المجيد وتحولت إلى حواجز في بعض الأحيان وصوارف قد تصرف أذهان القارئين من حقائقه وأنواره وتشغلهم في أمور أخرى. إن الأزمة الحقيقية -من وجهة نظري- ليست في تفسير القرآن فالقرآن يفسر نفسه بنفسه وكل تفاسير القرآن لا تستطيع أن تدعى لنفسها أنها كشفت عما أراده القرآن. ولكن الأزمة تكمن في قصور القراءة المعتادة عن تفهم الخطاب القرآني ليفعل في عقول الناس ونفوسهم ما فعله في أبناء جيل التلقي (أصحاب النبي عليه السلام) فحررهم من عقلية العوام, ونفسية العبيد, وطبيعة القطيع, وحولهم إلى نموذج فريد من البشر طالما حلم فلاسفة العالم بوجود مثله, ولكن

[1]- الصبر في القرآن, للقرضاوي, ص٧-٨.

المسلمين مع الأسف فيما بعد تعاملوا مع القرآن كما لو كان نصاً هامداً لا حياة فيه, قطعوه أجزاء متفرقة, وقسموه إلى أقسام مختلفة وافترقوا حوله فرقاً متباينة وأسقطوا عليه ما دخل عليهم من الثقافات والعلوم والفلسفات فجعلوا القرآن تابعاً لها وليست تابعة له, فكنا نود أن يتناول الشيخ القرضاوي بما آتاه الله من بيان رائع وفهم ثاقب هذا الموضوع ليتمكن المسلمون من أن يصلحوا بما صلح به أولهم([1]).

كما أن الشيخ القرضاوي لكثرة ما تناوله من أمور تدور حول القرآن ولكثرة انشغاله لم تتح له الفرصة لحسم بعض المسائل التي ما تزال عالقة في علوم القرآن وهو أهل لأن يقول فيها الكلمة الحاسمة ومثال على موضوع "النسخ" الذي تناول بأسلوبه الرقيق المتميزّ في كتابه "كيف نتعامل مع القرآن العظيم" موقف منه -كما عبر هو- "موقفاً وسطياً" حيث رفض موقف الإسراف في القول بالنسخ, وفي الوقت نفسه لم ينفه مطلقاً بل أقر بوقوعه في آيات معدودة, وهذا ما كان قد ذهب إليه الشوكاني, ومن المتأخرين مصطفى زيدّ, وهو موقف مع وسطيّته قد ناقشه بعض المتأخرين وخرجوا بتأويلات للآيات التي أدعى نسخها أو وقوع النسخ فيها. ولا شك أن أخانا الكبير لم يغب عنه ذلك ولو أراد التأويل لربما خرج بتأويلات أدق؛ ولكن موقف الشيخ هو موقف الداعية المفكر الذي يحرص على تأليف القلوب, وتحجيم مواطن الخلاف, ولو على تساهل مقبول في حسم بعض مسائل الخلاف العلمي المقبول مادام في دوائر الاجتهاد واختلاف الرأي الذي تتسع الشريعة له.

---

[1]- وقد أخرجنا سلسلة دراسات قرآنية لسد هذه الثغرة صدر منها خمس حلقات عن دار الشروق الدولية.

المحور الثاني : السنة النبوية

إذا كان القرآن الكريم هو المصدر المنشئ للتصورات والأحكام فإن السنة النبوية الشريفة هي المبينة له, والتطبيق العملي الواقعي له ومنهج الإتباع لهديه, وقد اهتم الشيخ القرضاوي بالسنة اهتماماً بالغاً من جهة فهمها والتعامل معها وكيفية الاهتداء بهديها.

يقول في مقدمة كتابه "المدخل لدراسة السنة النبوية" : "وقد ضمنته أهم مباحث السنة من التعريف بها, وثبوتها, وبيان حجيتها وجهود المسلمين في حفظها, وبيان المبادئ الأساسية لتعامل مع السنة المطهرة, والمعالم والضوابط اللازمة لفهم السنة فهماً صحيحاً بعيداً عن تضييق الجامدين, وتمييع المتهاونين".

ويصف مسلكه في الكتاب فيقول : "وتخيرت من الروايات أوثقها متقيداً بمحكمات القرآن والسنة, ومقاصد الشريعة وقواعدها, ومحاولاً إنصاف السنة من خصوصها اللد, ثم من أنصارها الذين يسيئون إليها بضيق أفقهم مع حسن نيتهم وإخلاصهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً"([1]).

والحق أنه في مجال السنة النبوية أصل أصولاً, وقعد قواعد, ووضع ضوابط تعين على فهم السنة فهماً منهجياً وليس فهماً حرفياً وهذه المعالم والضوابط هي :

١- فهم السنة في ضوء القرآن.

٢- جمع الأحاديث الواردة في الموضوع الواحد.

٣- الجمع والترجيح بين مختلف الحديث.

٤- فهم الأحاديث في ضوء أسبابها وملابساتها ومقاصدها.

٥- التمييز بين الوسيلة المتغيرة والهدف الثابت للحديث.

---

[1] - المدخل لدراسة السنة النبوية للقرضاوي, ص٣.

٦- التفريق بين الحقيقة والمجاز في فهم الحديث.

٧- التفريق بين الغيب والشهادة.

٨- التأكد من مدلولات ألفاظ الحديث([1]).

ولم يكن تناول الشيخ القرضاوي للسنة وقضاياها من زاوية نظر العالم فحسب, بل من زاوية رؤية الداعية أيضاً, الداعية الذي يحمل هموم أمته ويرى أمراضها, ويبحث عن شفائها فيقدم لها ما يراه الدواء الناجع. فبالسنة – كما هو الشأن في القرآن أيضاً – يمكن تصحيح الكثير من المفاهيم السائدة في مجتماعتنا والتي أدت إلى تعاسته وشقائه, فالسنة – كما يرى الشيخ القرضاوي – مصدر لتوجيه السلوك وتربية الأمَّة نفسيّاً وأخلاقيّاً. أما عن منهجه في الاستدلال بالسنة فيقول : "....وقد التزمت – في هذا الكتاب – ألا أستدل إلا بحديث صحيح أو حسن, إذ لا حجة في غيرهما, ولا أحتج بحديث ضعيف بيِّن الضعف, وإذا ذكرت حديثاً ضعيفاً – على ندرة – فإنما يكون للاستئناس لا للاحتجاج. وهذا اقتضاني أن أبين درجة الأحاديث وأسندها إلى مصادرها, وأذكر من صححها أو حسنها, أو على الأقل وثق رواتها, وهذا ما ألتزمه أبداً على ما فيه من جهد لكنه جهد غير ضائع".

وهذا المنهج من الشيخ القرضاوي محمود مشكور وقد اشترطه في غير كتاب له, وإن كان الواقع أن الشيخ قد اختار متابعة المحدثين في مناهجهم في مجال الحكم على الأحاديث في الأغلب الأعم من أعماله العلمية, فهو قد يقتصر على أقوال العلماء ونقدهم إلا أن يجد التضارب أمامه بين أقوالهم فيلجأ إلى محاولة البحث عن مرجح بينها فيقول "هناك أحاديث اعتمدت فيها على تصحيح أو تحسين المتقدمين من أئمة الحديث فقهاء السنة, وأعترف أني لم أناقشهم فيما صنعوا, بل كنت مقلداً لهم, ناقلاً عنهم, ولا غرابة أن يأخذ رجل الفقه عن رجل الحديث"([2]).

---

[1]- كيف نتعامل مع السنة النبوية للقرضاوي, ص٩٣ – ١٨٢, والمدخل ص١١٧ – ٢٠٥.

[2]- فتاوى معاصرة, ص١٠١.

ويعلق الشيخ على قبوله لحديث "من حبس العنب أيام القطاف حيث يبيعه من يهودي أو نصراني, أو ممن يتخذه خمراً, فقد تقحم النار على بصيرة" بأنه اعتمد على تحسين الحافظ, ثم يقول : هذا ما غرني بالحديث المذكور, وجعلني أقبله تقليداً كما قلت, إذ كنت في مرحلة التقليد المطلق في الحديث, ولم أبدأ البحث في أمر الحديث, والخروج جزئياً من إسار التقليد فيه, إلا عندما بدأت أكتب في فقه الزكاة([١]).

ولكن الشيخ – والحق يقال – كان إذا استنفره نافر أو دعاه داع لخوض غمار هذا الفن يقف موقف القادرين فيه كما يتضح ذلك مثلاً في تخريجه لحديث "ليس في المال حق سوى الزكاة"([٢]), وكذلك رده للحديثين للمشهورين "بعثت بين يدي الساعة بالسيف, حتى يعبد الله وحده لا شريك له, وجعل رزقي ظل رمحي"([٣]). وحديث افتراق الأمَّة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة([٤]).

والواقع أن هذا لا يدل إلا على غيرة الشيخ على السنة من أن يلتصق بها ما ينقض أصلاً من أصول الإسلام أو قيمة من قيمه أو مقصداً من مقاصده, بل إن هذه الغيرة كانت تدفعه أحياناً إلى أن يشدد على بعض الأمور التي يخشى ألا تأخذ حظها عند القارئين من الاهتمام الذي يبتغى إذا لم يجر التشديد عليها وذلك كقوله بعصمة السنة من التحريف فلا شك أن السنة الموحاة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصدق القرآن عليها ويهيمن فتحفظ بحفظه لكن هناك نقطة لا بد من التنبه إليها وهي حفظ الله تعالى للقرآن الكريم بنفسه في قوله جل شأنه "إنا نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" والسنة التي ذكرنا محفوظة بما يسره الله تعالى من أجيال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وذلك تشريف لهذه الأمة وتكريم لها أن يحفظ المصدر المنشئ وما يكون بيانا له بنفسه وأن يحفظ المصدر المبين بعلماء الأمة وربانييها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين والأئمة رضوان الله عليهم.

---

[1]- فتاوى معاصرة للقرضاوي, ج٢, ص١٠٢.

[2]- فقه الزكاة للقرضاوي, ج٢, ص١٠٢٠

[3]- فتاوى معاصر, ج٣, ص١٠٦.

[4]- الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق, ص٤٩.

كما أننا في الوقت الذي نؤكد فيه ما نبه فضيلته إليه ونوه به من جهود علماء الأمة في خدمة السنة, وتمييز صحيحها من سقيمها بيد أننا نرى أن الله تبارك وتعالى قد نص على حفظه للقرآن وهو المراد بالذكر عند الإطلاق ومنح علماء الأمة من قراء الصحابة وعلماء التابعين وأئمتهم ومن جاء بعدهم شرف جمع وحفظ وترتيب سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم لتكون منهاجاً للعلم بالقرآن وبيانه وبناء الحكمة والمقاصد في تطبيقه.

المحور الثالث : التراث الإسلامي

اهتم الشيخ القرضاوي بالتراث الإسلامي, وهو ما لا يستغرب من مثله فهو ابن هذا التراث وقد استوعب منه الكثير, واستفاد كثيراً من قضاياه, وهضم العديد من مسائله ثم وقف معه وقفة الناقد البصير الذي يعتبره ثروة عظيمة يجب الاستفادة منها بالانتقاء والانتخاب من بين كنوزها ما يقبله العقل ويرضاه النقل, وتقتضيه المصلحة المشروعة, وأن ندع منها ما ثبت لدينا خطؤه, أو لم يعد صالحاً في زماننا, أو لغير ذلك من الأسباب التي يرتضيها عقلنا المهتدي بما أنزل الله من الكتاب والميزان([1]). والشيخ يدعو إلى الانتفاع الواعي بتراثنا, فلقد حفل التراث بالطيب من القول والجيد من العلم, كما امتلأ بالخبيث والرديء ففيه أباطيل لا يقبلها العقل ولا العلم, وفيه ما لم تعد الحاجة إليه قائمة وهو ليس مع الذين يضفون القدسية أو العصمة على كل ما مضى, ولا مع خصومهم الذين ينأون بجانبهم عن كل موروث لا لشيء إلا لأنه قديم, ولكن لا بد لنا من التخير والانتقاء وخصوصاً في مجال التربية والتثقيف, أو مجال الدعوة والتوجيه, أو مجال الحكم والتشريع([2]).

وهو يخص التراث الفقهي بالدعوة إلى النظر فيه على ضوء ظروف العصر وحاجات الناس, لاختيار أرجح الآراء وأليقها بتحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق, بناء على قاعدة تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والإنسان, فليس صحيحاً أن الأول لم يترك للآخر بل فاق الأواخر الأوائل.

ولا تقتصر إعادة النظر هذه – في دعوة القرضاوي – على أحكام "الرأي" أو "النظر" وهي التي أنتجها الاجتهاد فيما لا نص فيه بناء على أعراف أو مصالح زمنية لم يعد لها الآن وجود أو تأثير بل يمكن أن تشمل بعض الأحكام التي أثبتتها نصوص ظنية الثبوت كأحاديث الآحاد أو الظنية الدلالة – وأكثر نصوص القرآن والسنة كذلك –

---

[1]– كيف نتعامل مع التراث للقرضاوي, ص٤٠.

[2]– الثقافة العربية والإسلامية بين الأصالة والمعاصرة, ص١٣-١٤.

فقد يبدو للمجتهد اليوم فيها فهم لم يبد للسابقين, وقد يظهر له رأي ظهـــر لـــبعض السلف أو الخلف ثم هجر ومات لعدم الحاجة إليه حينذاك, أو لأنه سبق زمنه أو لعدم شهرة قائله....([1]).

وليس في هذا كله أي انتقاض للتراث أو السلف الذين ورثناه عنـــهم بـــل إن الشيخ القرضاوي يدعو إلى الحرص على التشبع بروح السلف الصالح لهذه الأمَّـــة – وعلى رأس السلف الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وإحياء منهجهم في فقه أحكام الله في شرعه, وسننه في خلقه, وهو يعني المنهج الكلي للسلف أي طريقتهم الكلية في فهم الدين لا إلى شكله, وإلى مقاصد الشريعة لا إلى حرفيتها, وإلى روح العمل لا إلى مادته, وتغليب اليسر على العسر, والتخفيف على الإعنات, أما الأقوال الجزئية فهـــي تتأثر بظروف الزمان والمكان والعوائد والأحوال, وهي تتغير بتغير موجباتها مما يستلزم أن ندع بعض أقوال السلف لأنها كانت ملائمة لهم و لم تعد ملائمة لنا.

وهنا يقرر القرضاوي قاعدة هامة وهي أن إتباع منهج السلف يوجب علينا أن نجتهد لعصرنا كما اجتهدوا لعصرهم, وأن نفكر بعقولنا لتنظيم حياتنا كما فكروا هم بعقولهم, وأن نراعي زماننا وبيئتنا وأعرافنا وأحوال عيشنا, إذا أفتينا أو قضينا أو بحثنا, أو تعاملنا مع أنفسنا أو مع الآخرين, كما راعوا هم كل ذلك, وأن نقتبس من غيرنا ما ينفعنا كما اقتبسوا, وأن نبتكر في أمر دنيانا كما ابتكروا([2]).

فالاهتمام بالتراث والثقافة الإسلامية والتعامل معهما ينبغي أن يكون مبنياً على منهج مستقل يدفعنا إلى الإمام لا أن نرجع إلى الخلف ونعيش الماضي فنخسر بـــذلك الدين والدنيا معاً.

---

[1]- شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان, ص٩٢.

[2]- الثقافة العربية والإسلامية بين الأصالة والمعاصرة للقرضاوي, ص٤٨-٤٩.

التراث الإنساني

يرى الشيخ القرضاوي ضرورة الانتفاع بمنجزات الأمم الأخرى شرط أن يخضع ذلك لمقياس سليم في الأخذ والرد، وذلك كما استطاع سلفنا في عصر تألقهم الانتفاع بعطاء الأمم الأخرى، وعندنا من رصيدنا الثقافي والحضاري ما يجعلنا أهلا لأن ننتفع بما عند الآخرين دون أن نذوب فيهم، على أن نصل إلى درجة كافية من وضوح الرؤية لما نأخذ وما ندع، ومن صدق العزم على تغيير الواقع.

كما يرى أن الحضارة التي تسود اليوم – وهي الحضارة الغربية – لها مزاياها التي لا تنكر، من ناحية احترام حرية الإنسان وخاصة داخل أوطانها، وإطلاق دوافعه وطاقاته، حتى استطاع أن يطوع "الطبيعة" لخدمته ويفجر الذرة لمصلحته.

فالإسلام – فيما يرى – يرحب بكل ما كسبته البشرية، ووصلت إليه من خلال صراعها مع الطغاة والمستبدين، من صيغ وصور تطبيقية، تضمن حقوق الشعوب في مواجهة الحكام، وحرية الضعفاء أمام الأقوياء، من دساتير تفصل بين السلطات، وتحدد العلاقات، وبرلمانات منتخبة، وقضاء مستقل، وصحافة حرة، ومنابر حرة، وأحزاب معارضة، إلى غير ذلك، مما يتفق مع روح الإسلام ومقاصده الكلية، إن لم ترد فيه نصوص مباشرة جزئية(١).

وهو يرى أن المجتمع المسلم يقوم على "القيم الإنسانية" الرفيعة التي تتطلع إليها البشرية الراقية:

العلم، العمل، الحرية، الشورى، العدل، الإخاء، المحبة، الإيثار، ربط النظرية بالتطبيق، الوحدة، التعاون والتناصر والتراحم، التكافل المادي والأدبي، أخوة لكل الفئات لا طبقية(٢).

١- راجع : الإسلام والعلمانية وجها لوجه.

٢- راجع : ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده ص١٠٩- ١٥٦.

ولا يرى الاكتفاء بالتغني بحضارة الإسلام الزاهرة بالأمس، لكنه يدعو إلى إبداع حضارة إسلامية معاصرة، تأخذ من حضارة اليوم أفضل ما عندها، من عناصر العلم والتكنولوجيا وحسن الإدارة والتنظيم، وتحتفظ هي بأصالتها وخصائصها، فهي حضارة تتصل فيها الأرض بالسماء، وترتبط فيها القيم الربانية بالمعاني الإنسانية، وتتجلى فيها أصالة الإسلام، وروح العصر، ويجتمع فيها العلم والإيمان، ويلتقي فيها الحق والقوة، ويتوازن فيها الإبداع المادي، والسمو الأخلاقي، ويتآخى فيها نور العقل، ونور الوحي.

حضارة تبرز فيها مقومات الإسلام وخصائصه، وتتجسد فيها أهدافه ومناهجه، في بناء الفرد، وفي تكوين الأسرة، وفي تشييد المجتمع، وفي إقامة الدولة، وفي توجيه الإنسانية إلى التي هي أقوم، فهي — مع تميزها — تؤمن بالتفاعل بين الثقافات، والحوار بين الحضارات، والتعارف بين الأمم، والإخاء بين بني الإنسان حيثما كانوا، ولكنها تأبى أن تذوب في غيرها، وأن تفقد أصالتها وتميزها، لهذا ترفض كل أنواع الغزو الثقافي، والاستلاب الحضاري، والتسلط الأجنبي، وتقاوم الأساليب الملتوية، التي يدخل بها غزاة اليوم، متنكرين في ثياب الإنسان، وهم يخفون تحتها أنياب السباع، وسم الأفاعي، وروح الشيطان(١).

ولا غرو فإن عصرنا قد انتهى إليه حصاد تجارب إنسانية من مختلف الأعصار ومختلف البيئات، تتمثل في "ضمانات" أساسية لحماية حق الشعوب ضد طغيان الحكام وأهوائهم، مثل المجالس النيابية، وما لها من حق مراقبة الحكومة ومحاسبتها، بل إسقاطها، ومثل الدساتير، التي تحدد علاقة الحاكم بالمحكوم، وتصون حريات الأفراد، وتحد من طغيان السلطات الحاكمة، ومثل حرية الصحافة، وتعدد الأحزاب، وتكوين النقابات، وحق الإضراب.

ويجب علينا — نحن المسلمين — أن نعض بالنواجذ على هذه الضمانات، التي كسبتها الإنسانية بالجهاد الطويل مع الفراعنة والجبابرة والطغاة، وأن نعتبر المحافظة

١- راجع : الإسلام والعلمانية وجها لوجه.

على هذه الضمانات والمكاسب فرضا دينياً، لا يجـــوز التفـــريط فيـــه، لأن العـــدل والشورى والنصيحة، وأداء الأمانات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي أوجبها الإسلام لا تتم إلا بها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

والشيخ القرضاوي يفيد من النتاج الإنساني – بصرف النظر عن ديانة صاحبه، فنراه مثلا في حديثه عن "دليل الفطرة" (وهو أحد دلائل وجود الله تعالى) ينقل عـــن الفيلسوف الشهير ديكارت(١)، والفيلسوفين المعروفين هنري برجسون(٢) ورينان(٣)، والمؤرخ الإغريقي القديم بلوتارك(٤)، كما يفيد كثيرا من كتابات ومقالات عدد مـــن الكتاب الغربيين في إثبات حقيقة وجود الله بالبراهين العقلية المختلفـــة مثـــل : أ. ك. موريسون(٥)، إدوارد لوثر كسبل(٦)، جون ديوي(٧)، وغيرهم .

وفي كتابه الثمين "الإيمان والحياة يقيم الأدلة على أهمية الإيمان للإنـــسان ودوره في حياة البشر، مستفيدا من مؤلفات ودراسات وشَهَادَات وتأملات الكـــثيرين مـــن الغربيين مثل : الفيلسوف الرياضي "باسكال"، و" ألكسيس كاريل"، و "شبنجلر"، و "توينبي"، و "رينيه چينو" و "كولن ولسون" و "برنارد رسل" و "هنـــري لنـــك"، و "ديل كارنيجي" و "شارل موليه"، وكرجوعه إلى ما كتب الكاتب الفرنسي جـــاك أوستروي في كتاب "الإسلام والتنمية الاقتصادية"(٨)، والاقتصادي الأميركي جـــون سي . كامبس في كتابه : "المدخل إلى علم الاقتصاد"، والعالم النفسي الشهير ولـــيم جيمس(٩) وغيرهم في الكثير من آثاره العلمية.

١- راجع : وجود الله للقرضاوي ص ١٩.

٢- السابق, ص ٢٤.

٣- السابق, ص ٢٥.

٤- السابق, ص ٢٤.

٥- السابق, ص ٨٨.

٦- السابق, ص٨٧.

٧- السابق, ص١٠٦.

٨- انظر مثلا :

- يوسف القرضاوي : دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي, ص٦١-٦٧.

٩- انظر مثلا :

- يوسف القرضاوي : دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي, ص٢٤-٢٥.

ومع تقديرنا لمنهج الشيخ القرضاوي في التعامل مع التراث الإنساني, وهو منهج قريب جداً من المنهج الذي تبناه فلاسفة الإسلام من قديم بيد أننا نؤكد — مع اتفاقنا مع الشيخ — أن هذا التراث الأجنبي الذي نما وتطور في ظل نظريات معرفية أخـــرى, وفلسفات علوم مغايرة هو في حاجة ماسة إلى أن نتعامل معه تعاملاً منهجياً مـــستمداً من تعامل القرآن المجيد مع تراث الأمم السابقة فتصدق عليـــه أي نحـــاول أن نتـــبين مواطن الخلل فيه ومواطن التناقض مع رؤانا المعرفية ونظرية المعرفة الإسلامية وفلسفتها لنعيد ذلك التراث إلى حالة صدق تسمح بأن تهيمن القيم المعرفية الإســـلامية عليـــه وتزيل عنه عوامل تناقضه مع منهجنا القرآني, ثم بعد ذلك تجـــرى عمليـــة اســـتيعابه وتجاوزه, وقد فصلنا ذلك في دراساتنا القرآنية وفي مقدمتها كتابنا الأخير "معـــالم في المنهج القرآني" فليرجع إليه.

من السمات العامة لفكره وفقهه

١- التيسير

إن التيسير في الواقع ليس سمة من سمات فكر الشيخ القرضاوي وفقهه فقط, بل سمة وخاصية للإسلام ذاته وكل من أشربت نفسه روح هذا الدين يطبعه الدين بخصائصه, ومن استقرأ القرآن والسنة الثابتة يدرك أن التيسير مقصد من مقاصد هذا الدين وكل عقائد الإسلام وتكاليفه قائمة عليه, وأما ما نراه من التعقيد والتشديد في بعض ما ينسب إلى الإسلام من بعض المتحدثين باسمه. فهو نابع من هؤلاء المتحدثين أنفسهم وليس من الإسلام ذاته فالإسلام دين التخفيف والرحمة ما جاء إلا لرفع الحرج والعنت عن الناس "يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ" (البقرة: ١٨٥), "يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ" (النساء: ٢٨) "مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ" (المائدة: ٦), والشيخ القرضاوي- كما هو واضح من أبحاثه وفتاواه – يأخذ بالتيسير على الناس, ويبتعد عن الإعنات والتعسير فهذا – كما يرى – هو ما بنيت عليه الشريعة, وهو ثمرة اهتدائه بالقرآن والسنة. يقول الشيخ : وقد تبين لي بطول الدراسة والممارسة أن الرجوع المباشر إلى الكتاب والسنة يقترن دائماً بالتخفيف والتيسير, والبعد عن الحرج والتعسير.

ومما دفع الشيخ إلى التروع إلى التيسير ما لمسه من طغيان المادية على الروحية في هذا العصر, وغلبة الأنانية على الخيرية والنفعية على الأخلاق. وكيف كثرت فيه المغريات بالشر والمعوقات عن الخير, وأصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر.

والفرد المسلم في المجتمعات المعاصرة يعيش في محنة قاسية. بل في معركة دائمة, فقلما يجد من يعينه, وإنما يجد من يعوقه([1]).

ولهذا ينبغي لأهل الفتوى أن ييسروا ما استطاعوا, وأن يعرضوا على المسلم جانب الرخصة أكثر من جانب العزيمة, ترغيباً في الدين, وتثبيتاً لأقدامه على طريقه القويم([1]).

[1]– فتاوى معاصرة القرضاوي مقدمة المجلد الأول.

ويقول : وعلينا نحن معلمي الدين أن نشحذ أسلحتنا لجهاد الشيطان ومطاردته, وننفر أتباعه من بضاعته, وإغرائهم ببضاعتنا, وجذبهم إلى سوقنا, ولن يكون ذلك أبداً بالتعنت والتزمت, والإحراج والتسديد, والتعسير والتنفير(٢).

ثم يلفت الشيخ الانتباه إلى أمر هام لأن بعض الناس يتهمون العلماء الذين ينتهجون سبيل التيسير على الناس بأنهم واقعون تحت ضغط الواقع المعاصر فيقول : وأود أن أقرر في بداية الأمر أن التيسير أمر مطلوب شرعاً في ذاته, وليس مجرد استجابة لضغط الواقع, أو تناغماً مع روح العصر, كما يتصور بعض الناس(٣).

وقد ضرب الشيخ المثل والقدوة في هذا الصدد فأخرج سلسلة بعنوان "تيسير الفقه للمسلم المعاصر" صدر منها عدة أجزاء وقد حقق في هذه السلسلة أمرين لتيسير الفقه هما :

١- التيسير في الفهم. ٢- التيسير في الأحكام للعمل والتطبيق.

والنوع الأول وهو التيسير في الفهم يتحقق في رأي الدكتور القرضاوي بأمور منها :

١- توخي السهولة والتوسط : بأن يكتب بلغة سهلة وأسلوب مبسط بعيد عن وعورة المصطلحات, مع التوسط بين الإيجاز الملغز الذي عرفت به المتون, والإطناب الممل الذي يتسع في الشرح والتفصيل.
٢- مخاطبة العقل المعاصر بلغة عصره, فإنسان القرن الخامس عشر الهجري عير الإنسان منذ قرنين أو ثلاثة.
٣- استخدام معارف العصر ومقاديره ومصطلحاته.
٤- ربط الفقه بالواقع وحذف ما لا يتصل به.
٥- بيان الحكمة من التشريع حتى يقتنع به العقل ويطمئن به القلب.

---

[1]- المرجع السابق.

[2]- العبادة في الإسلام ص٣٢٧.

[3]- تيسير الفقه للمسلم المعاصر ص١٣.

٦- ربط الأحكام بعضها ببعض وبالمقاصد الكلية للشريعة.

٧- التخفف من كثرة الزوائد والتشعيبات والتعقيدات التي أضافتها العصور المختلفة.

٨- الاستفادة من كتابات العصر من العلماء والثقات, ومن قرارات المجامع الفقهية والعلمية, ومن الرسائل الجامعية.

٩- عرض مستويات مختلفة من الكتب, فليس الناس على مستوى واحد,

١٠- الالتزام بالترقيم ووسائل الإيضاح والفهرسة الدقيقة.

وأما النوع الثاني وهو التيسير في الأحكام للعمل والتطبيق فيتحقق بجملة أمور :

١- مراعاة جانب الرخص.

٢- مراعاة الضرورات والظروف المخففة.

٣- اختيار الأيسر لا الأحوط في زماننا,

٤- التضييق في الإيجاب والتحريم.

٥- التحرر من العصبية والمذهبية.

٦- التيسير فيما تعم به البلوى.

٧- رعاية المقاصد.

٨- تغير الفتوى.

٢- الوضوح

وقد أخذ الشيخ نفسه بالوضوح وهي سمة مثل سابقتها من سمات الإسلام, وخصائصه ولذلك فقد ظهر هذا الوضوح في أسلوب الشيخ وعباراته فهو يصل إلى ما يريد بلا صعوبة أو لف أو دوران, لغته بسيطة سهلة ولكنها ممتنعة في الوقت نفسه وهو في ذلك يهتدي بهدى القرآن نفسه الذي أنزله الله ميسراً بيناً في قراءته وفهمه,

ويظهر هذا الوضوح أيضاً في آرائه واختياراته ومواقفه ووسائله أساليبه.

وقد جعل الشيخ الوضوح والبعد عن الغموض والتكلف مزية من مزايا الرجوع إلى القرآن والسنة والتي هي الينابيع الصافية الأصلية لم يريد فهم الدين, يقول : "…. فالقرآن كتاب مبين يسره الله للذكر, وجعله هدى للناس, وبينات من الهدى والفرقان" وفيه قال سبحانه : "يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً", (النساء ١٧٤), والسنة – كالقرآن – قدمت أجل الحقائق وأشرف المعارف وأسمي التوجيهات, في وضوح رائع, وبساطة فائقة, وسهولة مشرقة, لا تكلف فيها ولا تعمل, ولا تعمق ولا تعقيد, وقد قال الله لرسوله (صلى الله عليه وسلم): "قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين", (ص٨٦), ومن عاش مع النبي صلى الله عليه وسلم في سنته وسيرته تبين له هذا الوضوح واليسر كالصبح لذي عينين.

وكذلك كان أصحابه, رضوان الله عليهم … وفرق بين أن تقرأ في الاستدلال على وجود الله تعالى قول القرآن الكريم : "أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ" (سورة الطور : ٣٥-٣٦), وبين أن تقرأ قول المتكلمين في نفس الموضوع "العلم بجميع أجزائه محدث, إذ هو أعيان وأعراض, فالأعيان ما له قيام بذاته. وهو إما مركب وهو الجسم أو غير مركب كالجوهر, وهو الجزء الذي لا يتجزأ. والعرض ما لا يقوم بذاته, ويحدث في الأجسام والجواهر, كالألوان والأكوان والطعوم والروائح, والمحدث للعالم هو الله". من العقائد النسفية.

وفيه – مع تكلفة – إشكالات واعتراضات وهو من أضح ما كتب في علم الكلام, فكيف بغيرها؟!.

وفرق بين قوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله أن يدله على أمر يعتصم به, فقال له : "قل أمنت بالله ثم استقم" وقوله : "البر حسن الخلق, والإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس" فرق بين هذا التوجيه الرباني الواضح السهل المنير للعقل والقلب معاً وبين تعمقات الفلاسفة, وتدقيقات المتكلمين, وتشقيقات بعض الفقهاء, وتمتمات كثير من الصوفية, في الأحوال والمقامات والتقاسيم والتعاريج التي أكثرها أحاج وألغاز, لا يتصورها أكثر الناس إلا بصعوبة, ولا يفهمها إلا بترجمة, ولا عجب فأكثرها لم يرد له ذكر في القرآن ولا في السنة, ولا في هدى الصحابة وتابعيهم بإحسان([1]).

ولقد أثمر هذا الوضوح عند الشيخ القرضاوي ثمراته الطيبة فكان خطابه سواءً في كتبه أو أحاديثه, خطابا وسيطاً يصل إلى كل المستويات, ويناسب جميع الطبقات, فيعجب المثقف والعامي, ويفيد كافة الفئات فيعمل عمله في عقل العالم والطالب في الوقت نفسه.

---

[1]– كيف نتعامل مع التراث ص٢٥, ٢٦.

نماذج من إنتاج القرضاوي

١- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف

هذا الكتاب واحد من أهم وأشهر مؤلفات القرضاوي, صدرت طبعته الأولي عن مجلة (الأمة) القطرية سنة ١٤٠٢هـ, ثم توالت طبعاته فيما بعد.

والكتاب يعالج قضية هامة, هي ما علق ببعض أفراد – أو فصائل – الصحوة الإسلامية من "تطرف" – كما يقول –, ولم يمنع الدكتور القرضاوي تعاطفه مع "الصحوة" – فهي قضية عمره – كما يقول أيضاً – من أن يعترف بوجود خلل عند البعض يجب التصدي لعلاجه.

وقد عالج القضية معالجة متميزة جاءت نتيجة معاناة واهتمام بالغين بها, كما عبرت هذه المعالجة عن أصالة وتمكن من الموضوع, وملاحظة لأبعاده كافة.

ولج القرضاوي إلى القضية بنزاهة وإنصاف من جهة؛ وبعاطفة الأبوة التي تحرص على العلاج من جهة أخرى ليبحث هل التطرف حقيقة أم وهم.

ففي البداية حقق لفظ (التطرف) أهو مقبول أم لا؟ وقد فضل عليه اللفظ القرآني (الغلو) لأنه الأنسب. ثم شرع في بحث أسباب وجوده, ووسائل العلاج, وقد نظر للأمر نظرة متكاملة منصفة فالجميع مسئول عما وقع, الشباب من جهة, والمجتمع والحكام من جهة أخرى, وقرر ذلك بكل وضوح: " ... العجيب أننا ننكر على الشباب التطرف, ولا ننكر على أنفسنا التسيب, ننكر على الشباب الإفراط ولا ننكر على أنفسنا التفريط. إننا نطالب الشباب بكل شيء أداء لواجباتهم ورعاية لحقوق غيرهم, ولكننا في الوقت نفسه لا نطالب أنفسنا بشيء, كأنما لنا كل الحقوق وعلى الشباب كل الواجبات, مع أننا نقرر في مناسبات كثيرة أن كل حق يقابله واجب"([1]).

والمؤلف موضوعي في تناوله للمشكلة لا يلقى الثمرة لما علق بها من غبار بل يقدر قيمة الشباب الإسلامي كما يقدر قيمة هذه الصحوة", ... وطالما أعلنت في

[1]– ص ٢٢ من الكتاب.

مصر في غير ما مكان : أن أعظم ما في مصر الآن هو هذه الثروة البشرية التي لا تقدر قيمتها بشيء مادي, وأعني بها هذا الشباب الناشيء في طاعة الله ونصرة دينه".

ويواجه العلماء الرسميين بصراحة ووضوح أنهم لا يصلحون لحمل هذه الأمانة, وتوجيه هذا الشباب ما ساروا في ركب السلطان.

والدليل من القرآن والسنة هو أداته في معالجة الموضوع وبيان الحق للشباب, كما كانت درايته بأصول الفقه خير عون له, مؤكداً الدعوة إلى ضرورة إيجاد علم يختص بفقه الأولويات (مراتب الأعمال وبيان الأولي فالأولي) وأدب الاختلاف, ومراعاة سنن الله تعالى في الكون. ويؤكد أن الحجة والبرهان هي الأسلوب الوحيد لمواجهة القضية, أما البطش والتنكيل فإنه لا يزيد النار إلا اشتعالاً.

كما رأيناه حريصاً كل الحرص على أن يقف موقف الوسط بين الإفراط والتفريط موجهاً النصيحة للحكام, "لا تتطرفوا في تصوير التطرف", "ولا تقابلوا التكفير بتكفير مثله".

وقد ذكر الشيخ أسباباً كثيرة وجوهرية لجنوح بعض الشباب الإسلامي إلى العنف إلا أن الأمر الذي كان على المؤلف أن ينبه عليه أن من أهم أسباب ظهور الغلو والتطرف عند هؤلاء الشباب هو تعاملهم مع التراث الإسلامي بالطريقة التقليدية التي تفتقر إلى المنهجية في التفكير ونقد الأقوال والمأثورات في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية وهذا الخطأ هو الذي ترتب عليه سوء الفهم وضلال الفكر عند الشباب من جهة وقصور المعالجة من جانب العلماء الرسميين من جهة أخرى ولعل الشيخ وجد المقام غير مناسب لطرق هذا الموضوع فأجله إلى مناسبة أخرى.

إلا أن الأمر الذي لا ينكر أن الكتاب حقق الهدف الذي كتب من أجله, وكان له أثر طيب في أوساط الصحوة وقت صدوره وسد فراغاً لا يسده غيره, ولاقى قبولاً واستحسانا من قبل أهل العلم والفضل في مختلف البلاد الإسلامية.

والحقيقة أن هذا الكتاب القيم لتكتمل رسالته ويؤتي ثماره في حاجة إلى سلسلة من الدراسات المتعمقة في قضايا الجمود والجحود لحماية الصحوة من هاتين الآفتين

وجعلها مستمرة دائمة نابضة بالحياة, ونحن نعرف أن الشيخ حفظـــه الله تعـــددت مشاغله وتنوعت اهتماماته وضاقت أوقاته واتسعت واجباته فلا يمكن لنا أن نطالبـــه بأكثر مما فعل لكن الأمل كبير في طلابه وتلامذته من شباب الجامعـــات وشـــباب الدعاة أو يواصلوا السير على هذا الطريق وينظروا إلى هذا الكتاب باعتبـــاره ورقـــة عمل فتحت الباب على مصراعيه للبحث والدراسة في ظواهر الجمـــود والجحـــود وغيرهما من الظواهر السلبية التي تعترض سبيل الدعوات في المراحل التاريخية المختلفة.

٢- المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة

هذا الكتاب شرح لأحد الأصول العشرين للشيخ حسن البنا – (الأصل الثاني) – في إطار سلسلة (نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام). والتي يشرح فيها القرضاوي "الأصول العشرين" للبنا رحمه الله.

لقد تحددت المرجعية العليا في الإسلام للقرآن الكريم باعتباره المصدر المنشيء للأحكام والتصورات, والسنة النبوية باعتبارها المصدر المبين للقرآن الكريم. وهذا المبدأ مما لا يجوز أن يخالف فيه مسلم رضي الإسلام ديناً, فهذا موجب عقد الإيمان "وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا" (الأحزاب: ٣٦), "فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً" (النساء: ٥٩), ثم حدد المرجعية النهائية للجميع بقوله تعالي : "وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ" (الشورى: ١٠).

وإنما يأتي الخلاف – وربما العناد والمشاقة – في الفهم والتفسير لقصور في العلم, أو اضطراب في الفكر, أو خبث في القصد, أو كيد للدين. يقول الشيخ القرضاوي : "لهذا كان من الأهمية بمكان التنبيه على أهم المعالم والضوابط, وأخطر المزالق والمحاذير في فهم الأصلين المعصومين, وتفسيرهما, وأن نطيل النفس في ذلك بعض الإطالة, لخطورة الموضوع واختلاف المدارس الإسلامية فيه بين الإفراط والتفريط ودخول غير الإسلاميين في المعمعة للتشويش والتشويه([1]).

وهو ينبه في مقدمة الكتاب أن ما ذكره في الكتاب من شرح لهذين الأصلين لا يغني عن كتابيه "كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟" و "كيف نتعامل مع السنة النبوية؟".

[1]- ص٧, ٨ من الكتاب.

والكتاب إجمالاً يحاول تحديد موقف المسلم من القرآن الكريم والسنة النبوية من جهتي الفهم والتفسير, وقد أفاد فيه – حفظه الله – لولا بعض الهنَّات الهينات التي لا يسلم منها عمل بشري ولكن بعضها له أثر بعيد في العقل المسلم, وذلك مثل ما ذهب إليه من وجوب التصديق بما جاء في فروع العقيدة من أخبار الآحاد, ثم حكمه على من ينكر هذه الفروع بأنه لا يستحق الوصف بالكفر أو الخروج من الملة لأن أدلة إثبات هذه العقائد ظنية وليست قطعية في ثبوتها.

فالتساؤل الذي يطرح نفسه هنا هو كيف نجمع بين إطلاق مصطلح (عقيدة) على هذه الفروع, وكونها ظنية في الوقت نفسه؟ فإن مفهوم العقيدة يقتضي اليقين الذي يعقد عليه المسلم عقله وقلبه, وتكون أعماله ثمرة للإيمان بهذه العقيدة, ومثل هذه الأمور لا ينبغي أن يكون للظن مدخل فيها, فالظن لا يجتمع مع اليقين أبداً في موضوع واحد ولا يلتقيان في قضية واحدة, وهو ما ذهب إليه جمهور العلماء من أن العقائد لا تثبت بخبر الواحد, كما أن هذا هو ما تبناه رواد النهضة الفكرية الإسلامية المعاصرة مثل السيد جمال الدين الأفغاني, والشيخ محمد عبده, ومحمد رشيد رضا, ومحمود شلتوت, ومحمد الغزالي رحمهم الله وهم في ذلك متبعون لما قرره جمهرة الأئمة في القرن الثاني الهجري – قرن تدوين العلوم الإسلامية – وفي مقدمتهم الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه.

والعقيدة التي توجه حياة المسلم, وتبني له رؤيته الكلية وتصوره بكامل خصائصه ومقوماته لا يتصور أن تنقسم إلى أصول وفروع لأنها أصول كلها. أما الأخبار التي أدخلها البعض في العقائد فهي في الحقيقة لا تلزم أحداً باعتقادها فإننا إذا قلنا إن القرآن هو المصدر المنشئ لعقائد الإسلام وأحكامه والسنة هي المبينة له, فليس معني هذا أن نجعل القرآن مصدراً لأجزاء في العقيدة والسنة مصدراً لأجزاء أخرى فالعقيدة كاملة وهي وحدة لا تتجزأ وينبغي أن تكون يقينية بكل جوانبها أما ما استفيد من خارج اليقين فيمكن أن يدخل في دائرة "المقالات", ولذلك فقد تحوط الإمام الأشعري رضي الله عنه قبل (الإبانة) وبعدها حين كان يستخدم مصطلح "مقالات

الإسلاميين" بدلاً من عقائد, في حين أن الأمام الرازي قد أطلق على ما أطلق عليـــه الإمام الأشعري (مقالات) (اعتقادات) فإن أراد الإمام بذلك اصـــطلاحاً لـــه فـــلا مشاحة في الاصطلاح. وإن أراد العقيدة الإسلامية المعرفة بالألف واللام فلابد مـــن تأويل كلامه آنذاك أو مراجعته فيه.

والعقيدة (أو الإيمان) نظراً لخطورة شأنها وخطورة أثرها في حياة المسلم بـــصفة عامة لم يترك القرآن مجالاً للزيادة فيها فأنشأ أركانها, وأرسى دعائمها, واستقرأ سائر مقوماتها فلم يعد المسلم بحاجة إلى مزيد من هذا الجانب, وقامت السنة النبوية المطهرة ببيان كيفية تفعيل تلك الأركان في حياة المسلم ليحقق الإيمان غايتـــه وليقـــوده في سلوكه وتصرفاته ويتجلى وينعكس على كل ما يأخذ ويرد من شـــئون وشـــجون الأعمال والتي ربما جنح البعض في فهم ما جاءت به تلك السنن من تفاصيل لأركان الإيمان إلى أن يعتبر أنها تشكل إضافة, كما جنح الذين تعاملوا مع أحكام الربـــا في القرآن وما جاء في بيان تلك الأحكام في السنة فقسموه إلى ربا القرآن وربا السنة في حين أنه لم يكن سوى مفهوم واحد فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يحل إلا ما أحل الله, ولا يحرم إلا ما حرم الله ولا يتبع إلا ما أوحي إليه صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه.

٣- الحلال والحرام

ألف القرضاوي الكتاب بتكليف من مشيخة الأزهر في عهد الشيخ محمود شلتوت وتحت إشراف الإدارة العامة للثقافة الإسلامية في عهد د. محمد البهي وقد أقرته اللجنة المختصة وأثنت عليه.

وقد انتشر الكتاب انتشاراً واسعا في العالم العربي والإسلامي، ونوه به كثيرون من العلماء المرموقين، حتى قال الشيخ مصطفى الزرقا : إن اقتناء هذا الكتاب واجب على كل أسرة مسلمة، وقال الشيخ محمد المبارك : هو أفضل كتاب في موضوعه، وكان الشيخ علي الطنطاوي يدرسه لطلابه في كلية التربية بمكة المكرمة، وعني الشيخ ناصر الدين الألباني بتخريج أحاديثه.

كما اهتمت به الأقسام الأكاديمية للدراسات الإسلامية في جامعتي (البنجاب) و(كراتشي)، ففي أوائل الستينات قدمت الدارسة جميلة شوكت (د. جميلة شوكت بعد ذلك) إلى قسم الدراسات الإسلامية بجامعة البنجاب دراسة عن الكتاب باعتباره نموذجا جديداً في كتابة الفقه الإسلامي، وقد حصلت بدراستها تلك على "الماجستير"، وكان المشرف عليها العلامة علاء الدين الصديقي رئيس الجامعة بعد ذلك.

كما قدم طالب آخر من جامعة كراتشي دراسة أخرى عن الكتاب.

وقد طبع الكتاب ما لا يقل عن أربعين طبعة بالعربية بالقاهرة، وبيروت، والكويت، والجزائر، والمغرب، وأميركا، كما تُرجم الكتاب إلى الإنجليزية والألمانية والأردية والفارسية والتركية والماليزية والإندونيسية والماليبارية والسواحلية والأسبانية والصينية، وغيرها.

وقد قامت في مقابل ذلك كثير من الأقلام والألسنة بالاعتراض على الكتاب وما ورد فيه من أحكام شرعية جنح إليها المؤلف.

يقول العلامة ناصر الدين الألباني في ذيل مقدمته لكتابه "غاية المرام" :

«... وأما القضية الأخرى، فهي أنه قد جاء في كتاب "الحلال

والحرام" غير قليل من الآراء والأفكار التي ذهب إليها المؤلف حفظه الله، مما هو من مواطن النزاع، فقد يقرها قوم وينكرها آخرون، كلٌّ حسب ما عنده من علم وفقه للكتاب والسنة، ومعرفة بصحيحها وسقيمها، وطرق الاستدلال بالأدلة الشرعية، كرأيه في ذبائح أهل الكتاب، والصور واقتنائها، وآلات الطرب والغناء بها، وغيرها من المسائل، فهو وحده المسؤول عنها، بل المأجور عليها، أصاب أم أخطأ»[1].

وموضوع الكتاب هو بيان الحلال والحرام في الإسلام، مع مراعاة التبسيط في الكتابة، وسهولة الإقناع، والمقارنة مع الأديان والثقافات الأخرى.

وبحث الكتاب في الحلال والحرام في أعمال الجوارح والسلوك الظاهر، دون أعمال القلوب وحركات النفس والعواطف والإرادات.

- **صعوبة التأليف في موضوع الكتاب، ومنهج المؤلف : قال القرضاوي :**

«... وربما بدا موضوع "الحلال والحرام" سهلا لأول وهلة، ولكنه في الواقع صعب المرتقى، فلم يسبق لمؤلف في القديم أو الحديث أن جمع شتات هذا الموضوع في كتاب خاص. ولكن الدارس يجد أجزاءه موزعة في أبواب الفقه الإسلامي كلها، وبين ثنايا كتب التفسير والحديث النبوي.

ثم إن موضوعًا كهذا يضطر الكاتب إلى أن يحدد موقفه من أمور كثيرة اختلف في حكمها علماؤنا القدامى، واضطربت فيها وفي تعليلها آراء المحدَثِين. وترجيح رأي على غيره في مسائل الحلال والحرام يحتاج إلى أناة وطول بحث ومراجعة، بعد أن يتجرد الباحث لله في طلب الحق، جهد الإنسان.

وقد رأيت معظم الباحثين العصريين في الإسلام والمتحدثين عنه يكادون ينقسمون إلى فريقين :

فريق خطف أبصارهم بريق المدنية الغربية وراعهم هذا الصنم الكبير،

[1] - غاية المرام ص١٢.

فتعبدوا له، وقدموا إليه القرابين ووقفوا أمامه خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة؟ هؤلاء الذين اتخذوا مبادئ الغرب وتقاليده قضية مسلمة لا تعارض ولا تناقش، فإن وافقها الإسلام في شيء هللوا وكبروا، وإن عارضها في شيء وقفوا يحاولون التوفيق والتقريب، أو الاعتذار والتبرير، أو التأويل والتحريف،...

والفريق الثاني : جمد على آراء معينة في مسائل من الحلال والحرام تبعًا لنص أو عبارة في كتاب، وظن ذلك هو الإسلام، فلم يتزحزح عن رأيه قيد شعرة، و لم يحاول أن يمتحن أدلة مذهبه أو رأيه، ويوزنها بأدلة الآخرين ويستخلص الحق بعد الموازنة والتمحيص...

وقد حاولتُ ألا أكون واحدا من الفريقين. فلم أرض لديني أن أتخذ الغرب معبوداً لي، بعد أن رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً. و لم أرض لعقلي أن أقلد مذهبًا معينا في كل القضايا والمسائل أخطأ أو أصاب؟... وغير لائق بعالم مسلم يملك وسائل الموازنة والترجيح أن يكون أسير مذهب واحد، أو خاضا لرأي فقيه معين. بل الواجب أن يكون أسير الحجة والدليل. فما صح دليله وقويت حجته فهو أولى بالإتباع، وما ضعف سنده، ووهت حجته فهو مرفوض مهما يكن من قال به، وقديما قال الإمام علي رضي الله عنه : "لا تعرف الحق بالرجال، بل أعرف الحق تعرف أهله".

وقد حاولت أن أراعي ما طلبته إدارة الثقافة قدر ما استطعت، فعنيت بالتدليل والتعليل والموازنة، مستعينا بأحدث الأفكار العلمية والمعارف العصرية. وقد كان جانب الإسلام والحمد لله مشرقا وضَّاءً...»[1].

- النقاط الأساسية في الكتاب هي:

١. مبادئ الإسلام في شأن الحلال والحرام.

٢. الحلال والحرام في الحياة الشخصية للمسلم.

[1]- الحلال والحرام ص١٢ : ١٤.

(في الأطعمة والأشربة – الذكاة الشرعية – الصيد – الخمر – المخدرات – الملبس والزينة – في البيت – في الكسب والاحتراف)

٣. الحلال والحرام في الزواج وحياة الأسرة.

(في مجال الغريزة – في الزواج – في العلاقة بين الزوجين)

٤. الحلال والحرام في الحياة العامة للمسلم.

(في المعتقدات والتقاليد – في المعاملات – في اللهو والترفيه – في العلاقات الاجتماعية – علاقة المسلم بغير المسلم)

٣- أَوْلَوِيَّات الحَركة الإسلامية

هذا الكتاب هو واحد من مؤلفات القرضاوي المهتمة برصد وتقويم "الصحوة الإسلامية"، منها : "أين الخلل"، "الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي"، "من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا"، "الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم "، ... إلخ.

ويندرج الكتاب في إطار اهتمام المؤلف بـ(فقه الأولويات) – كما يسميه –، الذي كتب عنه في غير كتاب له[1].

وأصل هذا الكتاب محاضرة ألقاها المؤلف في ندوة (قضايا المستقبل الإسلامي) نظمتها "رابطة الشباب المسلم العربي في أميركا الشمالية" وفي الجزائر، أضاف إليها فصولا أخرى مع بعض التنقيح.

يعد كتاب " أَوْلَوِيَّات الحَركة الإسلامية في المرحلة القادمة "[2] امتدادا طبيعيا ومكملا لسلسلة القرضاوي الفكرية (حتمية الحلّ الإسلامي) ، فالحل الإسلامي عنده واجب وضرورة حياة، والعمل المنظم أساس العمل الناجح، فما هي الأعمال التي لها الأولوية – من وجهة نظره - في المرحلة القادمة؟ وهذه الفكرة ترجع إلى نقطة فقهية أساسية ينقل الفقيه المفكر من ساحة الفقه إلى ساحة الفكر فإذا كان إيجاد (فقه الأولويات) أو (فقه ترتيب الأعمال)، ضرورياً للفقيه "فإنّ ترتيب أولويّات الحركة الإسلاميّة في المرحلة القادمة" ضروري للداعية.

يقول الشيخ « ... وينبغي أن نبعد عن هذه الساحة – ساحة النخبة – الوعاظ الشعبيين : وعَّاظ الجماهير، الذين لا يفهمون لغة العصر، ولا منطق المثقفين، ولا يتعاملون إلا مع القلوب المؤمنة، يلهبون حماسها ولا مع العقول

١- انظر مثلا : - «في فقه الأولويات .. دراسة جديدة في دور القرآن والسنة»

- الصحوة بين الجحود والتطرف ص١٥٩، ١٨٢، وما بعدها.

٣- أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة / يوسف القرضاوي. ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١٤ : ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ٢٢١ صفحة، قطع متوسط.

المتجردة التي قلما تقول : نعم، بل تسأل دائما : لم؟، وفيم؟ وكيف؟

ومثل الوعاظ الشعبيين الكُتَّاب الشعبيون أيضاً، فأولئـك يـستثيرون العواطف باللسان وهؤلاء يستثيرونها بالقلم،...

فهؤلاء وأولئك من الوعاظ والكتاب له أثرهم ونفعهم بقدر ما لـدى كل منهم من علم موثَّق، ولكن في محيط النخبة المثقفة يكون ضررهم أكبر من نفعهم»[1]

وفي مجال دعوة الجماهير ينبه إلى ملاحظة هامة يقع فيها البعض :

«هنالك خطأ يجب التنبيه على تصحيحه في طرح الشعارات الإسلامية والحلول الإسلامية للجماهير الإسلامية، فحينما ينادي الإسلاميون "الإسـلام هو الحل" و "لا صلاح لنا إلا بالإسلام" و "الإسلام هو سفينة الإنقـاذ ممـا نتخبط فيه من مشكلات اقتصادية واجتماعية وسياسية يتصور جماهير النـاس أن مجرد رفع هذا الشعار وتأييد أصحابه ودعاته في الانتخابات وحصولهم على عدد كبير من المقاعد الخ يحل كل المشاكل المعلقة بعصا سـحرية أو معجـزة سماوية، وهو ما يتعين على الإسلاميين ودعاتهم ومفكريهم أن يبينـوا للنـاس بوضوح كاف أن الإسلام يحل مشكلات الناس عن طريق الناس أنفسهم، وأن الله لا ينزل عليهم ملائكة تقوم عنهم بزراعة الأرض أو بتنمية الثروة الحيوانية أو السمكية، أو بتقوية الصناعة، أو بتنشيط التجارة، أو بإقامة هياكل البنيـة الأساسية، أو بتجنيد طاقات الأمة للعمل المنتج وصرفها عن العبث وتبديـد القوى،.. إن الناس هم الذين يقومون بهذا كله وبغيره مما تحتاج إليـه الحيـاة الطيبة...»[2].

ثم يخلص المؤلف إلى القسم الثاني من الكتاب : (معالم وخـصائص للفكـر المنشود)، ليحدد ما يجب أن يكون عليه الحركة الإسلامية في مـستقبلها فهـي ذات

١- ص٥٥- ٥٦.

١- ص٥٩- ٦٠.

(فكر علمي، واقعي، سلفي، تجديدي، وسطي، مستقبلي) تحمل مسئوليتها تجاه تحرير الأرض الإسلامية، والأقليات المسلمة في العالم، تدير الحوار مع عقلاء العلمانيين والحكام والغربيين والمستشرقين والساسة، كما تدير الحوار مع النصارى تبث فكرها في كل اتجاه ولا تقيد حركتها في دائرة ضيقة محدودة.

وهو يعزز ما يقول بحصيلته العلمية من القرآن والسنة والدراية بالتاريخ والتجربة الإسلامية في مجال الدعوة، كما يعززها بما لديه من علم بالفقه، ويرفق بالكتاب ملاحق لفتاوى العلماء تؤيد ما يقول.

– أبرز نقاط الكتاب الفكرية :

* في صدر الكتاب تمهيد : ناقش فيه المؤلف النقاط التالية :

١. مفهوم "الحركة الإسلامية".

٢. الحركة الإسلامية عمل شعبي طوعي جماعي منظم.

٣. مهمة الحركة الإسلامية : تجديد الإسلام.

٤. بماذا يكون التجديد المنشود.

٥. أولويات الحركة الإسلامية.

٦. تعدد مجالات العمل الحركي، وبيان أيها أولى.

– و "أولويات الحركة الإسلامية" – عند القرضاوي – متعددة بتعدد مجالات العمل وهي كثيرة:

فهناك العمل التربوي، والسياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، والجهادي، والدعوي والإعلامي، والفكري والعلمي.

وهو يدعو إلى ضرورة التخصص وتوزع القوى في جميع مجالات العمل.

مع ضرورة التركيز على النقاط الآتية – التي أفاض في تفصيلها في فصول الكتاب – في ضوء (فقه الأولويات) :

١. التركيز على مفاهيم معينة يجب تجليتها وتعميمها وتعميقها في المجال الفكري (وهو ما يسميه "الفقه الجديد") :

وذلك باستحداث أنواعا جديدة من الفقه هـي : فقـه الموازنات، فقه الأولويات، فقه السنن في الكون، فقه المقاصد في الشرع.

٢. التركيز على شرائح اجتماعية معينة يجب أن تمتـد إليهـا الحركة وتشملها الصحوة – وذلك في المجال الدعوي:

النخب المثقفة، جماهير الشعب، الطبقة العاملة، رجال المال والأعمال، المجال النسويّ.

٣. التركيز على مستوى كيفي معين مـن إعـداد القيـادات المرجوة للمستقبل ولاسيما الإعداد الإيماني والفكـري – وذلـك في المجال التربوي :

تكوين الطلائع الإيمانية التي تكون التربية الإيمانيـة هـي أساس تربيتها، يجتمع في تكوينها الفكري : الفكـر العلمـي، الواقعي، السلفي، التجديدي، الوسطي، المستقبلي.

٤. التركيز على تطوير الأفكار والممارسـات فيمـا يتـصل بالعلاقات السياسية المحلية والعالمية خروجا مـن التقوقـع الـداخلي والحصار الخارجي وتحقيقا لعالمية الحركة ومرونتها – وذلك في المجال السياسي :

وفيه يناقش موقف الحركة من :

- قضايا تحرير الأرض الإسلامية.
- قضايا التحرر في العالم.
- قضايا الحرية السياسية والديمقراطية.
- الأقليات المسلمة والمغتربة في العالم.
- الأقليات العرقية والدينية في المجتمع.
- الحوار مع الآخرين (عقـلاء العلمـانيين، والحكـام،

والغربيين، والمستشرقين، والساسة، والحوار الإسلامي النصراني).

- المؤسسة الدينية.
- فصائل الصحوة.

وفي خاتمة الكتاب يوصي بأمور ثلاثة :

- تفرغ الكفايات لواجبات الحركة الإسلامية.
- إعداد المتخصصين النوابغ في شتى المجالات.
- إنشاء مركز مجهز للمعلومات والبحوث .

٤- في فقه الأولويات .. دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة

يعكس هذا الكتاب اهتمام المؤلف بقضية ضرورة استحداث فقه جديد يختّص بدراسة مراتب الأعمال, وقد دعا المؤلف قبل هذا الكتاب بسنوات إلى أنواع جديدة من الفقه تعتبر في غاية الأهمية لترشيد مسيرة الصحوة الإسلامية, وتسديد خطاها ومن هذه الأنواع فقه الاختلاف وفقه الموازنات, وفقه الأولويات وقد تناول المؤلف فقه الاختلاف في كتابه "الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم"([1]). وتعرض لفقه الموازنات في بداية كتابه "أولويات الحركة الإسلامية", ثم خصص دراسة مستقلة لفقه الأولويات في هذا الكتاب.

والكتاب في الحقيقة خطوة أمامية هامة في مشروع الشيخ القرضاوي الذي يستهدف تقويم الفكر وتسديد المنهج, وتأصيل هذا النوع من الفقه من شأنه أن يرد العاملين في الساحة الإسلامية والمنظرين لها إلى الحرص على تمييز ما قدمه الشرع, وما أخره, وما شدد فيه وما يسره, والكتاب نموذج من نماذج كثيرة يظهر فيه التدافع بين دور المفكر ودور الفقيه في شخصية الشيخ القرضاوي فالموضوع برمته فكري من الدرجة الأولي بل هو من "الفقه الأكبر" في الفكر الإسلامي على وجه العموم ولكن معالجة الكتاب تغلَّب فيها دور الفقيه على دور المفكر, وهذا مفهوم من المؤلف لأنه يعلم أن المقصودين بهذا الكتاب ينظرون دائما إلى كل شيء بالنظر الفقهي الذي ضيق الخناق على المفكرين, وامتد امتداداً سرطانياً واسعاً وأصبحت أحكامه وفتاواه بالنسبة لبعض الحركات الإسلامية بديلاً عن برامجها الفكرية والحضارية والعمرانية وأطروحتها السياسية, فأصاب العمل الإسلامي بالشلل والعجز فحدثت حالة تململ ومحاولة استنصار بمعتدلي العلماء والفقهاء على متشدديهم فبدأت الأصوات تعلو بمصطلحات ومفاهيم (فكر الأولويات) و (فقه الأولويات) و (أولويات العمل الإسلامي) و (أولويات الحركة الإسلامية) وغير ذلك من أولويات, وكان في مقدمة من أشاعوا

---

[1]- كما أسهمنا في التأصيل لهذا الفقه بكتابنا "أدب الاختلاف في الإسلام" الذي صدر ضمن سلسلة كتاب الأمة وأعاد المعهد العالمي طباعته عدة مرات وترجم إلى مختلف اللغات.

هذه المصطلحات الشيخان الجليلان : الغزالي - رحمه الله — والقرضاوي - حفظه الله — الذي كان قد قدم محاضرة في هذا الموضوع بمكتب المعهد في القاهرة أثارت ضجة كبيرة في حينه جزاه الله خيراً.

وكأن المفكر لم يجد بداً وقد أحاطت به شباك الفتوى والفقه الضيق من كل جانب من أن يستخدم جانباً من الفقه الدقيق الذي يمكن أن يعطيه شيئاً من مرونة وسعة لمواجهة جوانب أخرى من فقه قد تضيق الخناق عليه وتشدد, فإذا بقضية (فقه الأولويات) تصبح بمثابة خشبة النجاة أو المرجع الذي يرد إليه تنازع المتنازعين لأن في (فقه الأولويات) من السعة والمرونة ما يمكن أن يساعد على نقل كثير من القضايا التي يشتد الجدل الإسلامي حولها إلى ساحة الفقه الأكبر والفكر الواسع بدلا من ساحة الفقه الأصغر والفكر الضيق.

ولو أن الكتاب كان قد تخفف قليلاً من غلبة "النظر الفقهي" واتسعت المعالجة الفكرية له لكان كتاباً في "علم الأولويات" إن صح التعبير, فإن إدراك الأولويات لم يعد ممكنا من خلال المدخل الفقهي الذي هو مدخل معرفي واحد, أو تخصص واحد, بل لا بد من مقاربته من مداخل عديدة وتخصصات مختلفة, بل والنظر إليه على أنه علم له أصوله وقواعده وجوانبه العديدة, ومن الغبن لهذا العلم أن يحصر في دائرة علم ما أو يحشر في ثنايا مباحث حتى لو كان ذلك العلم هو الفقه.

وهذا العلم (علم الأولويات) يفترض أن يتعامل مع القضايا المختلفة على مستويات عديدة فيتعامل به على مستوى الأفراد وعلى مستوى الأسر والجماعات والشعوب والأمم, فإذا استطعنا أن ندخل في ثقافة الفرد فن (إدراك الأولويات) بالنسبة له ومنهجية تحديدها فذلك قد يعود على الفرد بانتظام حياته ما دام حياً, وقس عل ذلك الأسر والجماعات والشعوب والأمم.

والكتاب على كل حال فتحُ للباب وتمهيدُ للطريق — كما يقول المؤلف — وقد استفاد الباحثون من هذا الكتاب استفادة كبيرة. وكما قلنا في سابقه فإن الكتاب يشكل نموذجاً وورقة عمل وتنبيهاً على علم يحتاج إلى من يواصل البحث فيه لإنضاج

قضاياه وتحديد مبادئه وبيان موضوعاته والكشف من مصادره وموارده ليجرى تداوله بين أهل العلم حتى يبلغ مستوى النضج الكامل ويصبح بحيث يمكن إدراجــه ضــمن المقررات الدراسية المقارنة والتي تتداخل فيها علوم ومعارف عديدة منــها الــسياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية إضافة إلى علوم المقاصد ومصادرها. ولنا أمل كــبير في أن يلتفت المشرفون على الدراسات العليا لتنبيه طلابهم إلى إعداد ودراسات أكاديميــة جامعية في هذه الموضوعات ليمكن من خلالها العمل على إعادة تشكيل فكر الأمــة وإثراء ثقافتها.

٥- فقه الزكاة

هذا الكتاب دراسة فقهية موسوعية مقارنة لأحكام الزكاة وآثارها في إصلاح المجتمع, في ضوء القرآن والسنة, وهو أكبر مرجع موثق كتب في فريضة الزكاة ويقع في مجلدين اثنين ويبلغ عدد صفحاته حوالي ١٢٣٠ صفحة.

وقد أثنى على هذا الكتاب عدد من كبار العلماء والدعاة البارزين في العالم الإسلامي كالأستاذ محمد المبارك وأبي الأعلى المودودي وقد تبنى مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي بجامعة الملك عبد العزيز بجدة ترجمته إلى اللغة الإنجليزية وأنهاها بالفعل, كما نقل إلى الأردية والتركية والإندونيسية وغيرها.

وأصل هذا الكتاب أطروحة أعدها الدكتور القرضاوي لنيل درجة الدكتوراة من جامعة الأزهر. وقد امتاز بشموله وسعة دائرة مصادره فلم يقتصر الباحث على المصادر التقليدية للزكاة في كتب الفقه الإسلامي, بل رجع إلى التفاسير وكتب الحديث والفقه المذهبي والفقه المقارن أيضاً, وكتب الفقه المالي والإداري, والبحوث الحديثة في الناحية المالية والاقتصادية, بل والاجتماعية أيضاً, ولم يقتصر على كتب فقه أهل السنة بل شمل ببحثه شتى المذاهب والاتجاهات هذا بالإضافة إلى كتب اللغة والتاريخ والتراجم ودوائر المعارف.

كما امتاز ببحث القضايا الحادثة المتعلقة بالزكاة, وربط الزكاة بالحياة الواقعية للأمة, مما يكشف أن الزكاة نظام إسلامي بنّاء في المجتمع وليس صدقة يتطوع بها الأثرياء على بعض الناس.

وقد اهتم القرضاوي في كتابه بالمقارنة والموازنة داخل المذاهب الإسلامية عامة المتبوعة المعروفة وغيرها من مذاهب الصحابة والتابعين ومن بعدهم لانتقاء أصح الأقوال والآراء وأقواها دليلاً فيما يرى, وبين الشريعة الإسلامية والشرائع الأخرى سماوية أو وضعية قديمة أو حديثة, وذلك لبيان ما امتازت به الشريعة الإسلامية على الشرائع السماوية المنسوخة أو الأرضية القاصرة.

كما اهتم الشيخ القرضاوي بالتفسير والتعليل فلم يكتف ببيان الحكم الشرعي مجرداً في كل مسألة, بل عنى بتفسير الحكمة من وراء تشريعه, والسر فيما أوجبه الشارع أو استحبه أو نهى عنه أو أذن به, إقتداء بالشارع نفسه الذي عنى بتعليل الأحكام وبيان مقاصدها ومنافعها للبشر.

كما اهتم بالتمحيص والترجيح, فلم يتقيد في أحكامه بمذهب ما, مما جعله في بعض المسائل يأخذ بقول غير مشهور ويعرض عن قول الجمهور, فظهرت شخصية الشيخ واضحة في الكتاب, ونزعته الاجتهادية لا تفارقه فيه, فأضفت على معالجة الموضوع أصالة وتميزاً. بيد أن الشيخ – حفظه الله – لحرصه على عدم الخروج عن الأطر الفقهية المتبعة لم يجد مسوغاً لبعض الاجتهادات التي خالفت ما ذهب إليه رغم أنها أقرب إلى تحقيق العدل والمصلحة المعتبرة وذلك مثل رأيه في زكاة النفط (البترول) وغيره مما يستخرج من الأرض (الركاز) حيث رجح عدم وجوب الزكاة فيه إذا كانت الدولة هي التي تتولي استخراجه([1]).

والذي نراه محققاً لمصالح الأمة في عصرنا هذا أن رأي من ذهب إلى وجوب تخصيص خمس الناتج من البترول والمعادن الأخرى لفقراء الأمة سواء أكانوا من أبناء البلدان المنتجة أو البلدان المسلمة الأخرى – أرجح في نظرنا مما ذهب إليه أخونا الحبيب الشيخ القرضاوي فإن هذا الرأي أقرب إلى مقاصد الشريعة وروحها ولا يضيره أنه مما لم يقل به المتقدمون, كما لا يضيره أن الإجماع على خلافه فالإجماع – وأن صح وقوعه – لم يكن في وضع كالذي نعيشه اليوم.

ولذلك فلعل علماء الأمة وحكماءها وقادتها يعيدون النظر في هذا الأمر, ونتمنى على الشيخ نفسه أن يتبنى الدعوة إلى هذا الرأي وهو جدير بأن يقدم خدمة ينتظرها – من مثله – أغلب المسلمين في العالم الذين يعانون من مثلث (الجهل والفقر والمرض) ولا يطالبون بأكثر من إعطائهم حقهم الشرعيّ بتخصيص ٢٠% من دخل

[1]– فصل الشيخ القرضاوي الكلام في هذا الموضوع في كتابه "الاجتهاد في الشريعة الإسلامية.

البترول باسم الزكاة أي خمس هذه الثروات الطائلة[1], والمقام لا يتسع هنا لتفصيل القول في هذا الموضوع, ومثل الشيخ ليس بحاجة إلى التفاصيل وفقه الله.

[1]- هذا الرأي أصله, ودافع عنه الدكتور محمد شوقي الفنجري في أكثر من كتاب له وخاصة كتابه "الإسلام والضمان الاجتماعي" و "الزكاة بلغة العصر" وأيده في ذلك الدكتور شوقي إسماعيل شحاتة والشيخ محمد أبو شهبة.

٦- برنامج "الشريعة والحياة"

يعد هذا البرنامج الذي تبثه قناة الجزيرة الفضائية من الوسائل الفعالة التي روجت لفكر الشيخ القرضاوي, وقد أحسن الشيخ – حفظه الله – استغلالها لصالح الإسلام والمسلمين والفكر الوسطي الذي يدعو إليه.

وكان الشيخ يختار من القضايا والموضوعات ما يناسب المستويات المختلفة للمشاهدين وثقافاتهم المتنوعة, ويطرح من الأفكار ما يحتاجه الناس ويكثر سؤالهم عنه فاستطاع من خلال هذا البرنامج أن يحدث رأياً عاماً إسلامياً يتميز بسعة الأفق إلى حد كبير.

وقد كان اسم البرنامج موفقاً حيث أتاح بالفعل فرصة للذين يتابعون الفضائيات الإخبارية في أن يتعرفوا على الشريعة والدين من عالم يمثل التيار الوسطي في الخطاب الديني المعاصر ويملك من الوسائل والأدوات ما يمكنه من تقديم الإسلام بطريقة تجمع أكثر مما تفرق. وتوحد أكثر مما تشتت. وأتاح البرنامج في الوقت نفسه فرصة لشريحة كبيرة من المتدينين الذين له موقف سلبي من وسائل الإعلام في أن يقفوا على مادة إعلامية متنوعة تصلهم بالحياة ومجرياتها وأحداثها.

كما أن البرنامج يتميز بتنوع مادته من فقه للأحكام وتزكية للنفوس, وفقه في الدعوة إلى الله. وفكر إسلامي إلى غير ذلك ورغم أن الشيخ هو الضيف شبه الدائم للبرنامج فإنه كان يتيح – أحيانا – الفرصة لغيره من الفقهاء والدعاة والمفكرين في أن يعرضوا ما عندهم على الناس من رؤى وأفكار.

خاتمة

وبعد, فهذه دراسة وجيزة تمثل تعبيراً عن حب وصداقة وتقدير لعلم معاصر من أعلام هذه الأمة, حاولنا من خلالها الإلمام بإيجاز فكره وفقهه وبعض ما أنتجه وهـــو فكر عميق دقيق, ولذلك جاء إنتاجه العلمي فيه عموم وشمول لكل مشكلات الأمـــة التي يحملها الشيخ الداعية, ويهتم بها, تحدوه في ذلك رغبتان قويتان, تتجلي الأولي في الدفع بهذه العلوم والمعارف التي عالجها بقلمه والتي تشكل الإطار الفكـــري لجيـــل الصحوة الناهضة إلى الأمام. وكذا جعلها أكثر ملاءمة ومواكبة لعصرها.

وتتجلى الثانية في المحافظة على خاصية الرشد والوسطية, والاعتدال في عمليـــة الدفع والبناء هذه من غير جنوح إلى إفراط أو تفريط.

ولقد أظهر هذا الجهد المتواضع أن الشيخ خريج مدرســـة ورثـــت تجـــارب الإصلاح والتصحيح في الأمة وعملت على إنمائها.

إن الشيخ القرضاوي علم من أعلام هذا العصر. مناصـــر لقـــضايا المـــسلمين المستضعفين, عامل على إعلاء كلمة الله أولاً وأخيراً, فهو صاحب فكر ودعوة جعلا الأصل أصلاً والفرع فرعاً, والثابت ثابتاً والمتغير متغيراً, أطال الله في عمـــره, ونفـــع بعلمه وعمله. وأجزل له المثوبة والأجر إنه سميع مجيب.